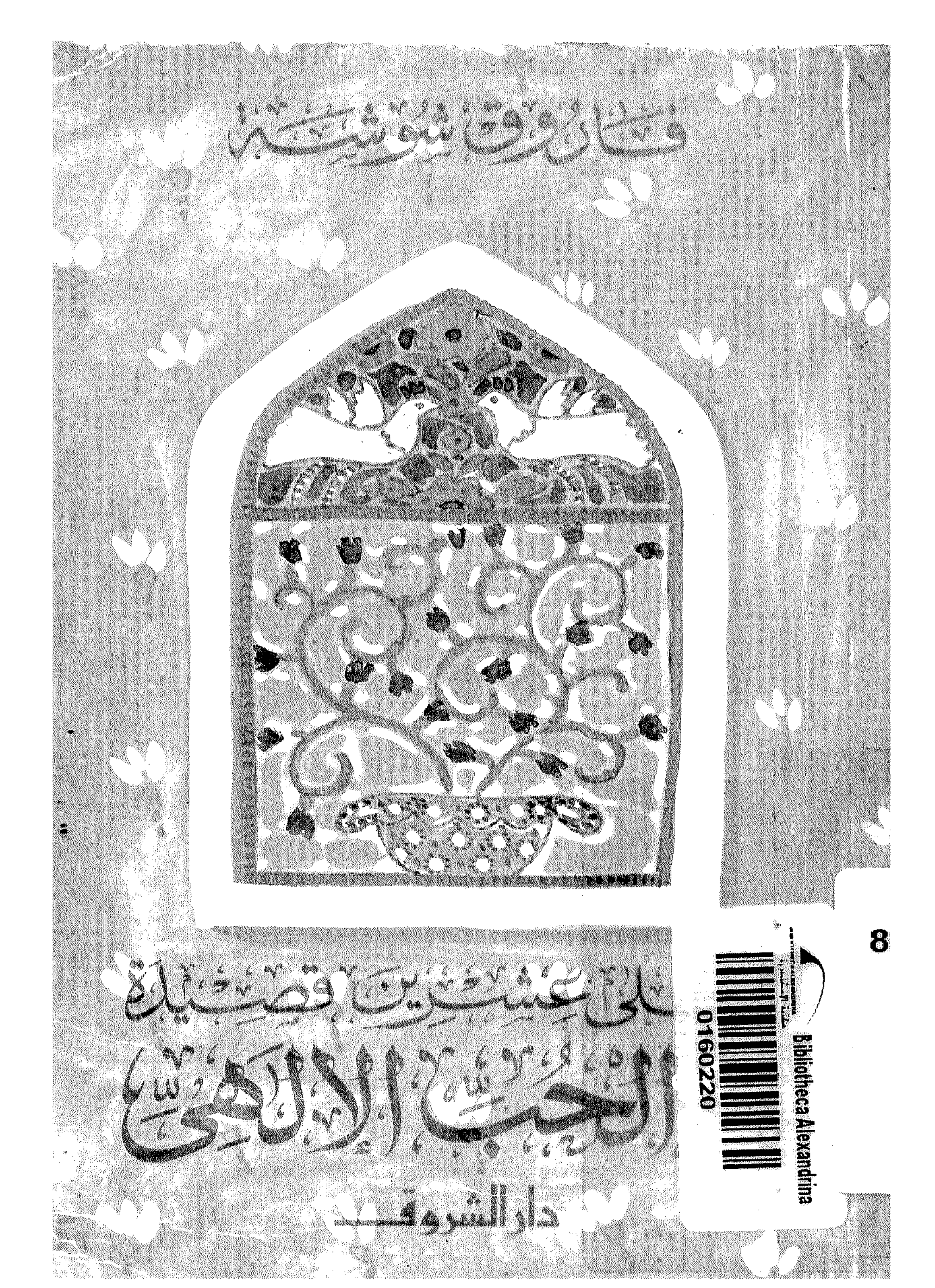

فاروق شوشة
لى عشرين قصيدة
الحب الإلهى
دار الشروق
8
Bibliotheca Alexandrina
0160220




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)


أحلى عشرين قصيدة
في الحب الإلهي

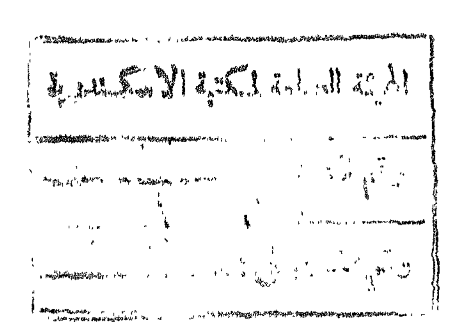
طبعة دار الشروق الأولى
١٤١١ هـ - ١٩٩١ م



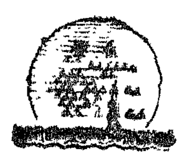
© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
برقيا : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

فاروق شوشة




# أحلى عشرين قصيدة في الحب الإلهي





دار الشروق



« لقد صار قلبى قابلاً كلَّ صورةٍ

فمرعى لغزلانٍ وديرٌ لرهبان

وبيتُ لأوثانٍ ، وكعبةُ طائفٍ

وألواحُ توراةٍ ، ومصحفُ قرآنِ

أدينُ بدين الحبِّ أنَّى توجّهت

ركائبه ، فالحبّ دينى وإيمانى »

**ابن عربى**



# هـذا الكـتاب

هذه هي الحلقة الثانية فى سلسلـة المختارات التى تهدف إلى تقديم عيون الشعر العربى ـ قديمه وحديثه ـ من خلال التفافها حول إطار معين ينتظم هـذه المختارات ، أو تجربـة شعريـة كبرى ، مع التـوقف بالتحليل والتأمل عند أبرز من تناولوها فى رحلة القصيدة العربية عبر العصور .

وإذا كانت الحلقة الأولى فى هذه السلسلـة توقفت عند تجربة الحب فى الشعر العربى ، وحملت عنـوان « أحلى عشرين قصيدة حب » فى هذا الشعر ، فإن هذه الحلقـة الثانية تتقدم إلى ساحة أسمـى من ساحات هذا الحب هى ســاحة الحب الإلهى ، حيث فاضت وجـدانات العشاق الكبار مـن الشعراء بأنغام وتـرانيم وألحان تطهروا بها ، وحلقـوا من خلالها ، دُنـوًّا واستشرافًا مـن الأفق الأعلى والأسمـى ، حيث ينـابيع الـروحانيـة ، والفيض الغـامر ، وحيـث تمتلئ النفوس بـأقباس مـن النورانيـة وتفيض العيون بـدموع النـدم والخشية والتوبـة ، وتعمر القلوب بوشائج المحبة الدائمة ، ومقـامات العشق وأحواله ، وينسكب هـذا كله فى النهـاية شعـرًا يفيض بـالصدق ويعمـر باليقين والمحبـة والإيمان .

لكن الأمر فى هذه المختارات المتصلة بالحب الإلهى لم يكن بالهين أو اليسير.

فعلى الرغم من امتلاء صفحات كثيرة من تراثنا العربى بنماذج هذا الحب، إلا أن اختلاطها واضطرابها وتداخلها، وتفاوت مستوياتها بين أصالة وتقليد، وشاعرية وصنعة، وصدق وتكلف، يجعل مهمة الاختيار والتصنيف شاقة وعسيرة، فضلاً عن عدم ملاءمة الكثير منها، وهى أمور اقتضت بذل المزيد من الجهد، واستغراق الكثير من الوقت.

ولسنا نزعم أن هذه القصائد العشرين هى أفضل ما فى تراث الحب الإلهى ـ قديمه وحديثه ـ من نماذج، ولا أن أصحابها من الشعراء هم وحدهم أفضل الشعراء وأحقهم بأن نتوقف عندهم، فكما قلت فى تقديمى « لأحلى عشرين قصيدة حب فى الشعر العربى »: إن الأساس الأول فى الاختيار هو ذوق شخصى، وقد يخطئ هذا الذوق وقد يصيب، لكن ارتباطى الوجدانى ببعض هذه القصائد من خلال مواقف وتجارب معينة، وعلى مدار العمر، جعلها أقرب إلى نفسى وأسبق إلى الاختيار من سواها.

كذلك فإن حرصى على تغطية مساحة طويلة من الزمان تنتظم شعر الحب الإلهى ـ من بدئه كظاهرة فنية ملموسة حتى يومنا هذا جعلنى ـ كما قلت من قبل ـ لا أطيل التوقف عند ممثلى كل عصر من بين أعلامه وأصواته الكبرى بقدر إسراعى إلى انتزاع القصيدة النموذج فى دلالتها وموضعها من السياق.

ولاشك أن وضــع هذه المختــارات فى سلك منظـوم يحمل انتظـامه معنى ، ويعطى تتابعه واطراده دلالة ، ويؤدى بسياق اكتماله إلى فكرة واضحة هــى الكشف عن تجربـة التعبير عن الحب الإلهى فى شعـرنا العربى ، وحقيقـة موقف الشعراء العشاق من هــذه التجربة والمدارات التى حلقوا فيها وسمـوا إليها ، وألوان الصور الشعرية التــى أبدعوها والأنغام الموسيقية التى عـزفوها والأبنية الفنية التى أقامـوها ـ لاشك أن هذا الهدف يستحق عناء البحث والتنقيب والتحقيق والاختيار .

ولقد ظلت هذه النماذج وغيرها مـن تراث الحب الإلهى مختلطة مع غيرها مــن قصائد المدائح النبـوية والابتهــالات والأدعية والمنظـومات والأذكــار الدينيــة ، ولعل هــذه هــى المحاولــة الأولى لاستخلاصهــا ، وتجريد بعضها ممــا لحق به من تحريفات أو علـق به من تجاوزات ، حتى تكـون هناك مختارات قــادمة ، تــركز على شعر المدائح النبــوية باعتبارها فنًا مستقلاً ، له خصائصه وسماته وله أعلامه من الشعراء قدامــى ومعاصريــن ، وله مساحتــه الواسعــة من الــدوران فى ديوان الشعر العربى منذ أقدم العصور حتى اليوم .

والأمل معقــود أن تلقى هذه المختــارات من شعــر الحب الإلهى ما لقيته ســابقتها لــدى القراء من ذيــوع وانتشار ، بعــد أن أدى الإقبال عليهــا إلى صدور الطبعــة السادســة منهــا فى سنوات معـدودة ، وأن يستجيب شعراؤنا ودارسونا للدعوة التى حملتها المختارات السابقة : أن يسهموا ويشاركوا فى هذا الميدان ، كل على حسب طاقته واستطاعته واهتماماته ، فتعدد مجالات الاختيار ، من خلال أذواق عدة ، من شأنه

أن يـؤدى فى النهايـة إلى تكـوّن الـذوق الصـحيح المدرب الـذى يجيـد الانتقاء والرؤية النافذة ، وينجح فى تقديم قراءة عصرية جديدة لكل ما يحمله التراث من كنوز ، بعد أن ينفـض عنها غبار الإهمال والنسيان ، ويعيد إليها ماء الجدّة والحياة .

فإذا ما نجحت هذه المختارات فى تقريب المسافة بين القارئ المعاصر وتراث أمته الشعرى ـ قديمه وحديثـه ـ وفتحت بابًا ولويسيرًا لتذوق عصرى ، ترفـده حساسيـة جديدة ، ووعـى جديـد ، فإنها تكـون قد شارفت الغاية ، وأشارت إلى الطريق .

# الرحــلة فى بحـار العشـق

هى رحلة حب من طراز نا در وفريد .

نتقدم من خـلالها إلى ساحة عامـرة وضيئة ، تغتنى بالعـديد من الأنغـام والألحان التى أبـدعها هـؤلاء الشعـراء الذيـن تغنوا بـالحب الإلهـى ــ عشقًا وهيـامًا وفنـاءً وذوبانـًا ـ بعـد أن سموا بـإدراكهم وتـذوقهم للجمال والحب إلى مـا فوق رغبـات الحس ودواعى المتعـة ونفـذوا إلى أبعد آمـاد معانيـه وصوره وتهويماتـه ، واستطاع هـؤلاء الشعراء ـ الذين امتلأت قلـوبهم ووجداناتهم بأقباس الحب الإلهى ـ أن يبدعوا عـالمًا شعريًا له مفـرداته ورموزه وإيحاءاته ، ولـه معجمه الخاص الذى لابد من الإحاطة به لمن يحاول الاقتراب من حدود عالمهم الشعرى ، خشيـة أن يزل أو يضل ، فـالجمال بالنسبة إليهـم وسيلة لسمو الروح واهتـدائها إلى المعانى الخيرة المطلقة والمبـادئ السامية . كما أن آيات الابداع التى تتجلى فى المخلوقات هى سبيل لتحقيق النشوة الروحية التى يعرج بها كل امرئ نقى السريرة إلى الله .

فالجمال الإلهى يتجلى فى الطبيعة من خـلال الموجودات والكواكب

والنجوم ، كما يتجلى فى النـاس . والكـون كلـه يشـترك فى عبـادة ذى الجمال المطلق المنزه عن التشبيه ، ويهيم بهذا الجمال فى نشوة مقدسة، وهذا الحب الإلهى يغمر الكون ، ولـولاه ما انتظـم الكون . ومـن هنا يمكن أن نفهم تجليات هذا الحب وأسراره وإيماءاتـه وومضاته ونحن نتـابع رحلـة هـؤلاء الشعـراء فى هيامهـم بـالجمال الإلهى تتردد على شفاههم أسماء محبوباتهم من البشر ، وهى فى حقيقتها رموز الجمال الأسمى ، فليلى وسعاد ونُعْم ـ وغيرها مـن الأسماء فى أشعارهم ـ هى الحبيب الأعظم ، وهى سبيلهم إلى الهداية الروحية ، يتجاوزون الجمال الجسمى المحدد إلى الانتشاء بالفيض الإلهى ، لجمالٍ يجل عن الوصف ويتقدس عن الكيف .

وقد عبر محيـى الدين بـن عربى ـ أحـد هؤلاء العشاق الكبـار من الصوفيـة ـ فى مقدمـة ديوانـه : ترجمان الأشواق ، عـن حقيقة إدراك هـؤلاء الشعـراء للجمال الإلهى ، منبهـًا إلى أن أشعارهـم لها ظـاهـر وباطـن، فظاهرهـا غزل يمكـن أن ينطبق على الغزل الحسّـى ، ولكن باطنهـا الهداية إلى أسرار الهيام بالمعـارف الإلهية والواردات البـاطنة والأسرار الجمالية العليا .[١]

يقول ابن عربى :

« لما نزلت بمكة سنة خمسمائة وثمانى وتسعين ، ألفيت جماعة من الفضـلاء ، ولم أر فيهـم مـع فضلهـم مثل أبـى شجـاع بـن رستـم

---

( ١ ) ليلى والمجنون أو الحب الصوفى ترجمة وتقديم الدكتور محمد غنيمى هلال .

الأصفهانى ، وكان لهذا الشيخ بنت تقيد النظر وتزين المحاضر، علمها عملها ، عليها مسحة مَلَك وهمة مِلك ، فقلدناها من نظمنا فى هذا الكتاب أحسن القلائد ، فكل اسم أذكره فى هذا الجزء فعنها أكنى ، ولم أزل فيما نظمته فى هذا الجزء على الإيماء إلى الواردات الإلهية ، والتنزلات الروحية والمناسبات العلوية ، جريًا على طريقتنا المثلى ، والله يعصم قارئ هذا الديوان من سبق خاطره إلى ما لا يليق بالنفوس الأبية والهمم العلية المتعلقة بالأمور السماوية » .

فإذا حاولنا أن نتأمل حقيقة هذا الحب الإلهى ومعناه ، ذلك الذى هام فيه الصوفية ، وفنوا وتفانوا ، معبرين عن خوالجهم وعن شطحاتهم ، فى نثرهم وشعرهم ، وأدعيتهم وابتهالاتهم ، وشروحهم وتعليقاتهم ومنظوماتهم ، وجدناه وقد تمثل فى صورته الأولى من خلال التعبير القرآنى المحكم ومأثور كلم الرسول الكريم .

جاء هذا المعنى فى القرآن الكريم « يحبهم ويحبونه » فى قوله تعالى : ﴿فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾ . [ سورة المائدة : الآية ٥٤ ]

وفى قوله تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ .

[ سورة آل عمران : الآية ٣١ ]

وقوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا أشد حبًا لله ﴾ .

[ سورة البقرة : الآية ١٦٥ ]

ويروى عن الرسول الكريم : اللهم إنى أسألك حبك ، وحب من يحبك والعمل الذى يبلغنى حبك ، اللهم اجعل حبك أحب إلىّ من نفسى وأهلى ومن الماء البارد .

ومن مأثور قول الرسول الكريم :

« من أحب الله فليحبنى ، ومن أحبنى فليحب أصحابى ومن أحب أصحابى فليحب القرآن ، ومن أحب القرآن فليحب المساجد فإنها أبنية أذن الله تعالى برفعها وتطهيرها وبارك فيها ، فهى ميمونة ميمون أهلها، فهم فى صلاتهم والله تعالى فى حوائجهم ، وهم فى مساجدهم والله تعالى فى نجح مقاصدهم » .

وفى القرن الثانى الهجرى تتأكد فكرة حب الله من خلال شخصية التفت حولها القلوب والعقول ، هى شخصية رابعة العدوية التى ظهرت فى البصرة داعية بدعوة جديدة هى دعوة التقرب إلى الله عن طريق حبه ، وهى تنادى بهذا الحب لأنها ترى أن الله أهل لأن يحب أولاً لأنه مصدر النعم التى لا تنقطع ، فلا سبيل لأن ينقضى حب المنعم بها على العباد ، وهو أهل لأن يحب ثانيًا لجماله وجلاله .

تقول رابعة :

أحبك حبين : حب الهوى
وحبًا لأنك أهلٌ لذاكا
فأما الذى هو حبّ الهوى
فشغلى بذكرك عمن سواكا

وأما الذى أنت أهل له

فكشفك لى الحجب حتى أراكا

فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى

ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

وفى موضع آخر من شعرها تقول :

ياسرورى ومنيتى وعمادى

وأنيسى وعُدّتى ومرادى

أنت روح الفؤاد ، أنت رجائى

أنت لى مؤنسى وشوقك زادى

أنت لولاك يا حياتى وأنسى

ما تشتتُّ فى فسيح البلادِ

كم بدت منة وكم لك عندى

من عطاءٍ ونعمة وأيادى

حبك الآن بُغْيتى ونعيمى

وجلاء لعين قلبى الصادى

ليس لى عنك ما حييت بَراحٌ

أنت منى ممكّن فى الفؤادِ

ويبدو أن نفاذ شخصية رابعة فى القلوب ، ودوران شعرها على

الألسنة والأسماع ، هو الذى أغرى كثيرين بالنظر إليه متابعةً واستلهاما ، يقول واحد منهم يعزف على وتر رابعة:

لما علمت بأن قلبى فارغ
ممن سواك ، ملأته بهواكا
وملأت كلى منك ، حتى لم أدع
منى مكانا خاليًا لسواكا
فالقلب فيه هيامه وغرامه
والنطق لا ينفكُّ عن ذكراكا
والطرف حيث أُجيله متلفتا
فى كلّ شىء يجتلى معناكا
والسمع لا يصغى إلى متكلم
إلا إذا ماً حَدّثوا بحلاكا

بل إنه ينظر من قريب أيضًا إلى أبيات ابن الفارض المشهورة :

لك قرب منى ، ببعدك عنى
وحنوٌّ وجدته فى جفاكا
علّم الشوق مقلتى سهر الليل
فصارت من غير نوم تراكا
حبذا ليلة بها صدتُ إسراك
وكان السهاد لى أشراكا
بات بدر التمام طيف محيّاك
لطرفى بيقظتى إذ حكاكا

فتراءيت فى سواك لعينٍ

بك قَرَّتْ وما رأيت سواكا

وهى أبيات تدور حول فكرة استحضار صورة المحبوب وتفنن هؤلاء الشعراء العشاق فى الإتيان بالصور المبتكرة والمعانى الطريفة، وهو مجال كان لابن الفارض فضل السبق فيه، من خلال قدرته الفذة على اصطياد عشرات الصور التى يتمثل فيها جمال صورة المحبوب، وتتجلى روعتها وتفردها وتمايزها، أليس هو القائل:

تراه إن غاب عنى كل جارحة

فى كلّ معنى لطيفٍ رائقٍ بهيج

فى نغمة العود والناى الرخيم، إذا

تألَّفا بين ألحانٍ من الهزج

وفى مسارح غزلان الخمائل فى

برد الأصائل والإصباحِ فى البَلَجِ

وفى مساقط أنداء الغمام على

بساط نَوْرٍ من الأزهار مُنتسج

وفى مساحب أذيال النسيم إذا

أهدى إلىّ سُحَيرًا أطيب الأرج

وفى التثامىَ ثغر الكأس مرتشفًا

ريق المدامة فى مستنزهٍ فرج

لم أَدْرِ ما غربةُ الأوطانِ وهو معى

وخاطرى أين كنّا غير منزعجِ

ويبـدو أن هذا اللـون مـن الحب لم يكن مـن السـهـل ولوج عـالمه والارتقاع إلى مستوى معـاينته وتمثله ، إلا بعد ابتـلاء طويل وتجارب قاسيـة يتعرض فيها المتصوف فى البـداية إلى معاناة الحب الإنسـانى حتى تحتدم به عاطفته ، فيكون التحول إلى حبٍ أسمى هو حب الله .

قال بعض المريدين لأستاذه : قد طولعت بشـىء من المحبة .

فقال : يا بنى : هل ابتلاك بمحبوب سواه فآثرت عليه إياه ؟

فقال : لا ، فقـال : فلا تطمـع فى المحبة فإنـه لا يعطيها عبـدًا حتى يبلوه. وشبيه بهذا ما قيـل لبعض الصوفية وكان قد بـذل المجهود من ماله ونفســه حتى لم يبق منها بقية : مـا كان حالك مـن هذه المحبة ؟ فقال : كلمة سمعتهـا من خلق لخلق عملـت بى هذا البلاء . قيـل : وما هى؟ قال : سمعت محبوبًا قد خلا بمحبوبه وهو يقول : أنا والله أحبك، أملكك مـا أملك ، ثم أنفـق عليك روحى حتـى تهلك ، فقلت : هـذا خلق لخلق وعبد لعبد ، فكيف بخلق لخالق وعبد لمعبود ، فكان لذلك سببه[1]

ثم يجىء ذو النون المصرى ـــ فى القرن الثالث الهجـرى ـ ليضيف إلى هذا البعد مـن أبعاد الحب الإلهى عند المتصوفة ملمـح الأنس ، الأنس بالله، أى العمل له خالصًـا ، مع فرح القلب بالمحبوب « أى الله » ولو كان ذلك عـن طريـق النظر إلى بعـض خلقه اتعـاظًا واعتبـارًا دون السكن إليهم.

يقول ذو النون حين سئـل عن الأنس : أن تأنس بكـل وجه صبيح

---

( ١ ) « أبو طالب المكى » : قوت القلوب جـ ٢ .

وكل صوت فصيح ، والله تبارك وتعالى فيما بينك وبين ذلك .

ثم نطالع عند إخوان الصفاء ـ فى القرن الرابع الهجرى ـ إدراكًا أعمق وأشمل لفكرة الحب الإلهى باعتباره الحب الحق والعشق الخالد الذى تسمو إليه النفس الناطقة عند بلوغها أقصى ما تسمو إليه من الكمال فالله هو المعشوق الأول المنزه عن الشبيه [1] ولا يستلزم حب الله والهيام به تجسيمًا فى رأيهم ، لأن الله يجل عن الشبيه والصورة ، لكن رؤية أولياء الله تعالى له هى رؤية نور بنور لنور فى نور ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة ، لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ﴾ .

[ سورة النور : الآية ٣٥ ]

وهكذا يمضى إخوان الصفاء فى هذا الطريق ، طريق اتخاذ الحب طريقًا إلى الله ، والهيام به لجماله وجلاله ، وإدراك أن هذا الجمال كان الباعث على خلق الكون [2] ، والفلك إنما يدور شوقًا إليه ومحبة للبقاء والدوام المديد على أتم الحالات وأكمل الغايات وأفضل النهايات .

وهكذا تكتمل صورة هذا الحب الإلهى ، من خلال أبرز أعلامه ، واتجاهاتهم وأفكارهم ، فهو ليس تعلقًا بالأجساد وصور المادة ، بل

---

( ١ ) رسائل إخوان الصفاء جـ ٢ .

( ٢ ) روضة المحبين ونزهة المشتاقين : ابن قيم الجوزية .

هو حب للمعانى العقلية والكاملة وتعلق بالمثل وهيام بمصدر الكمال والجمال ، ومن هنا فالحب عند الصوفية طريق إلى الزهد فى متع الدنيا جميعًا وحرب على النفس وسبيل إلى العزوف عن مغرياتها .

والصوفية يحفلون بجمال الروح قبل جمال الجسم ، ولا فرق عندهم بين حب من صفت روحه من حسان الخلق وحب شيخ الطريقة الكهل الأشيب لأنه جميل الروح [١] . وشرط الوصول إلى الحق عن طريق الحب أن يكون المحب جميل الروح ،وأن يهتم بمخلوق جميل الروح ولو لم يكن جميل الجسم ، إن جمال الروح هو الذى يفتح أمام المحب الطريق للتأمل والفكر اللذين هما السبيل للوصول إلى الغاية من الحب عند الصوفية . فجمال الخلق يمكن أن يتخذ سبيلاً لمعرفة الحق، والحب هو الطريق لمعرفة الحقيقة . يقول عبد الرحمن الجامى الشاعر الفارسى المتصوف ـ فى قصة يوسف وزليخا ( ترجمة الدكتور محمد غنيمى هلال ) :

« القلب الخالى من ألم العشق ليس بقلب ، والجسم الخالى من ألم العشق ليس إلا ماءً وطينًا ، فأشح بوجهك عن العالم ولا تفكر إلا فى العشق ، فدوران الفلك إنما هو من أجل العشق فكن أسير العشق لتصير حرًا ، وقاسِ من أحزانه فى صدرك لتحظى بالسرور ، ولا تشح بوجهك عن العشق ولو كان العشق المجازى لأنه الطريق إلى العشق الحقيقى ، وكيف تتيسر لك قراءة القرآن إذا لم تكن قد طالعت أولاً

---

( ١ ) الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية للدكتور محمد غنيمى هلال .

الحروف الأبجدية فى اللوح ؟ سمعت أن مريدًا طلب من شيخه العون فى إرشاده فقال له الشيخ : إذا لم تكن قد نقلت الخطو فى طريق العشق فاذهب وأحبّ ثم عد إلينا ، إذا بدون كأس خمرة الصورة لن يستطيع امرؤ تذوق جرع المعنى ، ولكن لا تمكث طويلاً أمام الصورة واعبر سريعًا ذلك الجسر إذا أردت أن تسرع بوضع رحلك فى منزل الوصول».

ويروى الجامى فى قصته « يوسف وزليخا » حكاية الفتاة المصرية الجميلة المسماة « بازعة » وقد أحبت « يوسف » من قبل أن تراه لما سمعته من وصفه ، فلما رأته وقعت مغشيًا عليها لما بهرها من جماله ثم أفاقت فأخذت تسأله : « يا من بك يستقيم أمر كل ذى حسن ، من ذا الذى زينك بمفاتن الجمال ؟ من ذا الذى جعل شمس جبينك تتألق؟ وأى مصورٍ أبدع قلمه فى نفسك ؟ وأى بستانى تعهد شجرة سروك وأى فرجار رسم قوس حواجبك ؟ ومن ذا الذى جعد هكذا ذوائبك ؟ ومن أين لوردتك النضرة ذلك الماء الذى به رويت ؟ » .

فأجابها يوسف : « أنا صنعة صانعى ، وقطرة من بحره كافية لخلقى ، وما الفلك إلا نقطة من كماله ، وما العالم إلا برعمة من حديقة جماله ، وقد أشرقت الشمس بنور حكمته ، وما السموات إلا حباب من بحر قدرته ، وجماله منزه عن تهمة العيب ، مستتر فى حجاب الغيب ، وقد جعل من ذرات العالم مرايا انعكس وجهه فى كل منها ، فكل ما يبدو جميلاً فى عيون المفكّر النافذ البصيرة ليس إلا انعكاسًا لوجهه ، فحين ترين هذا الانعكاس عجّلى بالاتجاه صوب الأصل الذى لا يبقى

بالاضافة إليه إشراق لذلك الانعكاس ، وإذا بقيت بعيدة عن أصل ذلك الجمال ـ وحاشا أن تبقىْ ـ فلا يلبث أن يفنى الجمال الذى تعلقت به فتظلين فى الظلمات ، فالجمال فى الخلق انعكاس عابر لا يطول بقاؤه كنضارة الورد فإذا أردت الخلود فتوجّهى إلى أصل الأشياء كلها » .

وعندما علمت الفتاة الحكيمة بهذه الأسرار من فم يوسف ، طوت بساط حبّها له ، وقالت له : « قد كدت أسقط إعياءً عندما رأيت وجهك ، وكنت أود أسلم الروح فوق قدميك ، ولكن حين ثقبت جوهر الأسرار وتحدثت عن سمات منبع الأنوار ، جعلتنى بلطف قولك الحق أدير وجهى عن حبّك ، قد رفعت الحجاب عن وجه المثال الذى إليه تطلعت ، والآن وقد تفتح قلبى لهذا السر ، وتطلعت أنظارى إلى العشق الحقيقى عن طريق عشقك المجازى ، فخير لى أن أنصرف عن المجاز إلى الحقيقة». ثم شكرت يوسف وانصرفت ، وأسست لها مقامًا للعبادة على ساحل النيل حيث ترهبت وزهدت فى خير الدنيا .

ويعرف بعض هؤلاء العشاق من المتصوفة المحبة بأنها الميل الدائم بالقلب الهائم ، وإيثار المحبوب على جميع المصحوب ، وموافقة الحبيب فى المشهد والمغيب ومحو المحب بصفاته وإثبات المحبوب بذاته ، ومواطأة القلب لمرادات الرب ، وترك الحرمة مع إقامة الخدمة .

يقول أبو يزيد البسطامى : المحبة استقلال الكثير من نفسك واستكثار القليل من حبيبك .

ويقول سهل بن عبد الله التسترىّ :

إن العباد عبدوا الله على ثلاثة وجوه : على الخوف والرجاء والقرب

ولكلٍ علامة يعرف بها وشهادة تشهد له بما له وعليه . فعلامة الخائف الاشتغال بالتخلص مما يخاف فلا يزال خائفًا حتى يتخلص ، فإذا تخلّص مما يخاف ، اطمأن وسكن ، فهذه علامة الخائفين . وأما الراجى فإنه رجا الجنة وطلب نعيمها وملكها فأعطى القليل وطلب الكثير، فبذل نفسه وخاف أن يسبقه أحد فجد فى البذل وتحرز من الدنيا ألا يقف غدا فى الحساب فيسبق .

وأما العارف الذى طلب معرفة الله وقربه ، فإنه بذل ماله فأخرجه ، ثم روحه فأباحه ، فلو لم تكن جنة ولا نار لما زال ولا فتر ، فهذه علامة العارف .

فانظروا أيها العقلاء : من أى القوم أنتم ؟ أموتى لا حياة فيكم ، أم لا موتى ولا أحياء ؟ أم أحياء حيوا حياة الخلد ؟

ويحك : إن الخائف حيٌّ بحياة واحدة ، وللراجى حياتان ، وللعارف ثلاث حيوات ، وهى الحياة التى لا موت فيها .

فحياة الخائف إذا أمن النار فقد حيى بحياة ثم يتم بحياة ثانية ، ويدخل الجنة بغير حساب ، والراجى أمن من العذاب ومن الحساب فمر إلى الجنة مع السابقين بغير حساب ، فصار له أمانان ، وأما العارف فصار له أمانان من النار ، والأمان الثالث صار إلى الرحمن .

ويقول سهل أيضًا :

الحب معانقة الطاعة ، ومباينة المخالفة .

وسئل الجنيد عن المحبة فقال : دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب .

ويقول أبو عبد الله القرشي : حقيقة المحبة أن تهب كلّك لمن أحببت فلا يبقى لك منك شيء .

ويقول الشبلي : سُمّيت المحبة محبة لأنها تمحو من القلب ما سوى المحبوب .

ويقول ابن عطاء : المحبة إقامة العتاب على الدوام .

ويقول أبو علي الدقاق : المحبة لذة ومواضع الحقيقة دهش .

ويقول أيضًا : العشق مجاوزة الحدّ في المحبة .

ويقول الشبلي : المحبة أن تغار على المحبوب أن يحبه مثلك .

ويقول ابن عطاء : المحبة أغصان تغرس في القلب فتثمر على قدر العقول .

ويقول سحنون : ذهب المحبون لله تعالى بشرف الدنيا والآخرة لأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : يحشر المرء مع من أحب .

ويقول النصر اباذي : المحبة مجانبة السلو على كل حال .

وأنشد قائلاً :

ومن كان في طول الهوى ذاق لذةً
فإني من ليلى لها غير ذائقِ
وأكثر شيءٍ نلته من وصالها
أمانيّ لم تصدق كلمحة بارق

وأنشد ابن عطاء :

غرست لأهل الحب غصنًا من الهوى
ولم يك يدري ما الهوى أحدٌ قبلي

فـأورق أغصـــانًا وأتبـــع صـــبوةً
وأعقــب لى مـــرًّا من الثمـــر المحلـى
وكـلّ جمـيع العاشقـــين هـــواهم
إذا نسـبوه كـــان من ذلك الأصـــل

وفسر أبو على الـدقاق قـول الرسـول الكريـم : « حبك الشـىء يعمى ويصم» قال : يعمى عن الغير غيرةً وعن المحبوب هيبة .

ثم أنشد :

إذا مــــا بـــــدا لى تعـــاظمـــته
فـأصــــدر فى حـــال مـن لم يـــرد

ويقول الحارث المحـاسبى : المحبـة ميلك إلى الشـىء بكليتك ، ثـم إيثارك له على نفسك وروحـك ومالك ، ثم موافقتك لـه سرًا وجهرًا ، ثم علمك بتقصيرك فى محبته .

ويقول الشبلى : المحب إذا سكت هلك ، والعارف إن لم يسكت هلك .

ويفسر بعض العارفين [1] هذا الكلام بقوله :

إن المحب الواله لابدّ له من الشكـوى ، ويهيج من المحبة حتى ليكاد أن يحترق لو لم يبد ما عنده ، ولا يستطيـع الصبر على غيبة محبوبه ، لذلك قال الله فى حق أم موسى ـــ عليه الصلاة والسـلام ـ عند إلقائه فى اليم وغيبته عنهـا ( إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنـا على قلبها ) ولو كان بين يـديها لكتمته حـرصًا عليـه ، وكذلـك العارف إذا وصـل إلى

( ١ ) السمو الروحى فى الأدب الصوفى لأحمد عبد المنعم عبد السلام الحلوانى .

المعرفة بمحبوبه كتم سره حرصًا على البقاء فى حضرته وأدبًا من هيبته وخشوعًا فى حضرته ، ولأنه بات فى حضرة الغنى المطلق مترقيًّا فى الأسرار العلية فلا ينظر ما سواه ، وقد أغناه عن طلب غيره والتذّ بسريان السر فيه ، فهو فى مسارح الروح تائه فى بيداء الجلال ، يتكلم المتكلمون حوله وقلبه قد لها عنهم ، وروحه فى تجلياتها العظمى فوق مدارك الفهوم فلا يفهمهم ولا يُفهمهم ما لا يطيقون حمله ولا يستطيعون فهمه ، ومن وجد فى الحضرة فقد عراه الصمت المطلق فى باطن أسراره ، ولو تكلم فى الظاهر بموجب الشريعة وحال بشرنيته ، ولكنه يلهب القلوب لمجرد رؤيته من أنوار الحق التى تتجلى على باطنه ، ولذلك يذيق العارف محبيه حلاوة الإيمان بدون احتياج إلى بيان .

وقيل : المحبة نار فى القلب تحرق ما سوى مراد المحبوب .

ويقول السوسى : لا تصلح المحبة إلا بالخروج عن رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب بفناءٍ على المحبة .

ويروون أن السرىّ رفع إلى الجنيد رقعة وهو يقول له : هذه خير من سبعمائة قصة أو حديث يعلو فإذا فيها :

ولما ادعيت الحب قال : كذبتنى
فمالى أرى الأعضاء منك كواسيا
فما الحب حتى يلصق القلب بالحشا
وتذبل حتى لا تجيب المناديا
وتنحلّ حتى ليس يبقى لك الهوى
سوى مقلة تبكى بها وتناجيا

ومما يروى أيضًا ـ فى هذاالسياق ـ أن يحيى بن معاذ كتب إلى أبى يزيد

البسطامي قائلاً : سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبته .

فكتب إليه أبو يزيد : غيرك شرب بحور السموات والأرض وما روى بعد، ويقول هل من مزيد ؟

وأنشد :

عجبت لمن يقول : ذكرت إلفي
وهل أنس فأذكر ما نسيتُ
أموت إذا ذكرتك ثم أحيا
ولولا حسن ظني ما حييتُ
شربنا الحب كأسًا بعد كأس
فما نفد الشراب وما رويتُ
فأحيا بالمنى وأموت شوقـًا
فكم أحيا عليك وكم أموتُ

ويقول عبد الله بن المبارك :

من أعطى شيئا من المحبة ولم يُعط مثله من الخشية فهو مخدوع .

وقيل : المحبة سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه ، ثم السكر الذى يحصل عند الشهود لا يوصف .

وأنشدوا :

لى سكرتان وللندمان واحدة
شيء خُصصتُ به من دونهم وحدى

ويقول يحيى بن معاذ : مثقال خردلة من الحب أحب إلىّ من عبادة سبعين سنة بلا حب .

وتذاكر قوم المحبة فى حضرة ذى النون المصرى فقال : كفّوا عن هذه المسألة لا تسمعها النفوس فتدعيها ، ثم أنشأ يقول :

الخـــــوف أولى بـــالمســـــــى‏ء
إذا تـــألّـــــــه والحـــــــــزَنْ
والحـــب يجـمـــــل بالتـــقىّ
وبـــالنقـــىّ مـــن الـــــــدرن

ويروون أن قومًا جلسوا يتذاكـرون المحبة فى الكعبة ، وكان الجنيد أصغرهم سنـًا فطلبوا إليه الكلام ، فـأطرق برأسه ودمعـت عيناه ثم قال: عبدٌ ذاهل عن نفسه ، متصل بذكـر ربه ، قائم بأداء حقوقه ناظر إليه بقلبـه ، أحرقت قلبـه أنوار هويتـه ، وصفا شربه مـن كأس وده ، وانكشف له الجبار عن أستار غيبـه فإن تكلم فبالله وإن نطق فعن الله وإن تحرك فبأمـر الله وإن سكن فمع الله ، فهـو بالله ومـع الله ، فبكى القوم وقالوا : ما على هذا مزيد ، جَبَرك الله يا تاج العارفين .

والجنيد هوالقائل :

وتحققـــــتك فى ســــــــرى
فنـــاجــــاك لســــــانـــى
فاجتمعـــــــنا لمعـــــــان
وافـــــترقــــــنا لمعــــــان
إن يـــكن غَـيَّبـــكَ التعظـــيم
عــن لفـــظ عيـــــــــانى
فلقــــــد صـــيرَّك الـوجــد مــن الأحشـــاء دانِ

وهو القائل أيضًا فى معنى المشاهدة :

حـــاضرٌ فى القلـــب يعمـــره
لســت أنســاه فـــأذكـــره

فهــو مـــولاى ومعتــــــمدى
ونصـــيبى مـــنه أوفـــــره

وقيل : أوصى الله تعالى إلى داود عليه السلام : ياداود إنى حرمت على القلوب أن يدخلها حبى وحب غيرى .

ويروى عن أبى سعيد الخراز أنه قال : رأيت النبى - صلى الله عليه وسلم - فى المنام ، فقلت له : يا رسول الله اعذرنى ، فإن محبة الله تعالى شغلتنى عن محبتك ، فقال : يا مبارك ، من أحب الله فقد أحبنى .

ونطالع فى هذه السطور لأبى الحسن الشاذلى - أحد أقطاب العارفين بالله والمتصلين بأسرار الحب الإلهى - اقترابًا من حدود هذا العالم الروحى السمح والأفق النورانى السامى ، وهو يتحدث عن الأنس الربانى وشوارق الأنوار ولوائح الأسرار ويقف عند الأحوال والمقامات ، يقول أبو الحسن :

« أول منزل يطؤه المحب للترقى منه إلى العلا : النفس ، فإذا اشتغل بسياستها ورياضتها إلى أن انتهى إلى معرفتها وتحققها أشرقت عليه أنوار المنزل الثانى وهو القلب ، فإذا اشتغل بسياسته حتى عرفه ولم يبق منه عليه شىء ، أشرقت عليه أنوار المنزل الثالث وهو الروح فإذا اشتغل بسياسته وتمت له المعرفة هبت عليه أنوار اليقين شيئًا فشيئًا

إلى تمام نهاياته ، وهذه طريق العامة ، وأما طريق الخاصة فهى طريق مسلوكة ، تضمحل العقول فى أقل القليل من شرحها » . ويقول : « من أمده الله تعالى بنور العقل الأصلى شهد موجودًا لا حد له ولا نهاية ، بالإضافة إلى هذا العبد ، واضمحلت جميع الكائنات فيه ، فتارة يشهدها فيه كما بنية فى الهواء بواسطة نور الشمس ، وتارة لا يشهد انحراف نور الشمس من الكوة ، فالشمس التى يبصر بها هى العقل الضرورى بعد المادة بنور اليقين ، وإذا اضمحل هذا النور ذهبت الكائنات كلها وبقى هذا الوجود ، فتارة يفنى وتارة يبقى ، حتى إذا أريد به الكمال نودى فيه نداء خفيًّا لا صوت له ، فيمد بالفهم عنه ، ألا إن الذى يشهد غير الله تعالى ليس من الله فى شىء ، فهناك يتنبه من سكراته فيقول : يارب ثبتنى وإلا فأنا هالك ، فيعلم يقينًا أن هذا الحب لا ينجيه منه إلا الله عز وجل فحينئذ يقال له : إن هذا الموجود هو العقل الذى قال فيه رسول الله ـ صلى الله عليهِ وسلم ـ : أول ما خلق الله العقل ، فأعطى هذا العبد الذل ، والانقياد لنور هذا الموجود ، إذ لا يقدر على حدّه وغايته ، فإذا أمد الله هذا العبد بنور أسمائه قطع ذلك كلمح البصر ، أو كما شاء الله تعالى : نرفع درجات من نشاء ، ثم أمده الله تعالى بنور الروح الربانى فعرف هذا الموجود فرقى إلى ميدان الروح الربانى ، فذهب بجميع ما تحلّى به هذا العبد ، وما تخلى عنه بالضرورة، وبقى كلا موجود ، ثم أحياه الله بنور صفاته فأدرجه بهذه الحياة فى معرفة هذا الموجود الربانى فلما استنشق من مبادئ صفاته كاد يقول : هو الله . فإذا لحقته العناية الأزلية نادته : ألا إنّ هذا الموجود

هو الذى لا يحق لأحد أن يصفه ، ولا يعبر عنه شىء من سر صفاته لغير أهله ، لكن بنور غيره يعرفه فإذا أمدّه الله بنور سر الروح وجد نفسه جالسًا على باب ميدان السرّ ، فرفع همته يعرف هذا الموجود الذى هو السرّ ، فعمى عن إدراكه فتلاشت جميع أوصافه كأنه ليس بشىء ، فإذا أمده الله تعالى بنور ذاته أحياه حياة باقية لا عاقبة ولا غاية لها ، فينظر جميع المعلومات بنور هذه الحياة ، ووجد نور الحق شائعًا فى كل شىء لا يشهد غيره ، فنودى من قريب : لا تغتر بالله ، فإن المحجوب من حجب عن الله بالله ، إذ محال أن يحجبه غيره ، وهناك يحيا حياة استودعها الله تعالى فيه ، ثم قال : أعوذ بك منك حتى لا أرى غيرك ، وهذا هو سبيل الترقى إلى حضرة العلى الأعلى ، وهو طريق المحبين الذين هم أبدال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وما يعطيه الله تعالى لأحدهم من بعد هذا المنزل لا يقدر أحد أن يصف منه ذرة ، والحمد لله على نعمائه .

وأما طريق المحبوبين الخاصة بهم ، فإنه ترقٍ منه إليه به ، إذ محال أن يتوصل إليه بغيره ، فأول قدم لهم بلا قدم ، إذ ألقى عليهم نور ذاته ، فغيبهم بين عباده وحبب إليهم الخلوات وصغرت لديهم الأعمال الصالحات ، وعظم عندهم رب الأرض والسموات ، فبينما هم كذلك إذ ألبسهم ثوب العدم ، فنظروا فإذا هم لاهم ، ثم أردف عليهم ظلمة غيبتهم عن نظرهم ، فصار نظرهم عدمًا لا علة له ، فانطمست جميع العلل ، وزال كل حادث ، فلا حادث ولا وجود ، بل ليس إلا العدم الذى لا علّة له ، فلا معرفة تتعلق به ، اضمحلت المعلومات ،

وزالت الرسومات زوالا لا علة فيـه ، وبقى من أشير إليه ، لا وصف له ولا صفة ولا ذات ، واضمحلت النعوت والأسماء والصفات كذلك ، فلا اسم ولا صفة ولا ذات ، فهنالك ظهر مـا لم يزل ظهورًا لا علة فيه ، بل ظهر بسره لذاتـه فى ذاته ظهورًا لا أولية لـه ، بل نظر من ذاتـه لذاته فى ذاته ، وهناك يحيا العبد بظهور حياة لا علة لها ، وصار أولاً فى ظهوره لا ظاهـرًا قبله ، فـوجدت الأشياء بـأوصافـه وظهرت بنـوره فى نوره سبحانه وتعالى . ثم يغطس بعـد ذلك فى بحر بعد بحر إلى أن يصل إلى بحر السر فإذا دخل بحـر السر غرق غرقًا لا خروج له منـه أبد الآباد ، فإن شاء الله تعالى بعثه نائبًا عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، يحيى به عباده ، وإن شاء ستره يفعل فى ملكه ما يشاء » .

ويقـول أبو الحسـن الشاذلى : « لا يـوصف العبـد بأنـه قد هجـر المعاصى إلا إن كانت لم تخطر لـه على بال ، فإن حقيقة الهجر نسيان المهجور ، هذا فى حق الكاملين ، فإن لم يكـن كذلك فليهجر على المكابدة والمجاهدة » .

ويقول أيضًـا : لن يصل العبد إلى الله تعـالى وبقى معه شهـوة من شهواته ، ولا مشيئة من مشيئاته ، ولن يقتـل هو نفسـه حتى يأخذها بالقوة وشدة المجاهدة إلى أن يذللها تذليلا ويروضـها على نسيان ذاتها، فيقف عند حد الذل إلى الله تعالى .

وفى ذلك يقول عمر بن الفارض :

وما ظفـــرت بالــودّ روح مـُراحـــةٌ
ولا بالـولا نفـسٌ ، صفـا العيـش ودَّتِ

وأيـن الصـفـا ؟ هيهـات بالعيش عاشقٌ
وجـنة عـدنٍ بالمـكاره حُـفـّتِ
ولى نفـس حـرٌّ لـو بـذلت لها على
تسـلّيك ما فـوق المـنى ما تسـلّتِ
ولـو أبعـدت بالصـدّ والهجـر والقلى
وقطـع الرَّجـا من خلـّتى ما تخـلتِ
وعـن مـذهـبى فى الحـب ما لى مذهبٌ
وإن ملـت يـومًا عـنه فـارقـت ملـّتى
ولـو خطـرت لى فى سـواك إرادة
على خـاطـرى سهـْوًا قضيت بردَّتى

ويقول بعـض العارفين مـن المحبين : « لولا الحب لم يخلـق الله فى الناس حياة ، فالحياة حب الله هى السعادة والوجود ، وفى غير حب الله هى الشقاء والفقد . وقال الله سبحانه وتعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ، والذيـن آمنوا أشدّ حبا لله ، ولو يرى الـذين ظلموا إذ يرون العـذاب أن القوة لله جميعًا وأن الله شـديد العذاب ﴾ .

فالمخلوق يحن إلى خالقه بضرورة وجـوده ، لا يجد محبوبًا أسمى فى الله ، ولا يجد راحة إلا فى السكون إليـه وغنىً إلا به ، ولا جمالاً إلا فى التشوق إليه ، والخالق يحن إلى من خلق ببرّه ورحمته ، وبحكم احتياج المخلوق إلى خـالقه إلا إذا كان من الكـافرين الأشقيـاء ، أو ذل بالحب المادى حتى هلك فيه .

وهو شبيه بقول من قال : سألت ربى بأىّ شىء أصل إليك يارب ؟ فقال : اترك نفسك وتعال .

فإذا قتل حب النفس والأنانية والشهوات ، عاش لله بلا نفس ، وكانت الروح القدسية هى المتغلبة على النفس فمحتها وعاش بها محلقًا فى سماء القدس لا يهوى الدنيا وأهلها .

ويقول ذو النون المصرى : الأنس بالله نور ساطع ، والأنس بالناس سم قاطع . الشوق أعلى الدرجات والمقامات إذا بلغه العبد استبطأ الموت شوقًا إلى ربه ، وحبًّا للقائه والنظر إليه .

ويقول : مدار الطريق على أربع : حب الجليل ، وبغض الفانى القليل، واتباع التنزيل .

ويقول :

لا لأنى أنساك أكثر ذكراك
ولكن بذاك يجرى لسانى

ويقول :

ذكرنا وما كنا لننْسى فنذكرُ
ولكن نسيم القرب يبدو فيظهرُ
وأحيا به عنىّ وأحيا به له
إذ الحق عنه مخبرٌ ومعبّرُ

ومن أشعاره فى الحب الإلهى :

أنت فى غفلة وقلبك ساهى
فغدا العُمرُ والذنوب كما هى

جمةٌ أحصيت عليك جميعا
في كتاب وأنت عن ذاك لاهي
لم تبادر بتوبةٍ منك حتى
صرت شيخًا فحبلك اليوم واهِ
فاجتهد في فكاك نفسك واحذر
يوم تبدو السّماتُ فوق الجباه

وتصل الحال بالعارفين والعاشقين إلى أعلى درجات الذكر ، والمشاهدة فيفيض البيان بما عجز عن كتمانه القلب واللسان .

يقول الشبلى الذى كان يقوم بالليل ويكتحل من الملح ليعتاد السهر ولا يأخذه النوم :

ذكرتك ، لا أني نسيتك لمحة
وأيسرُ ما في الذكر ذكر لساني
وكدت بلا وجد أموت من الهوى
وهام عليَّ القلب بالخفقانِ
فلما أراني الوجد أنك حاضري
شهدتك موجودًا بكلِّ مكان
فخاطبتُ موجودًا بغير تكلم
ولاحظت معلومًا بغير عيان

ويقول النابلسي الذى شغلت أذكاره الناس فى مصر والشام والعراق لما فيها من عذوبة الإيقاع وجيشان النغم وخفّة الروح فى أنشودة الساقى :

ساقى يا ساقى
اسقنى من خمره الباقى
واكشف لى عن قيد إطلاقى
آه يا ساقى ، آه يا ساقى
أستاره راحت
عن عينى والزهرة فاحت
والسكرة بالأسرار باحت
آه يا ساقى ، آه يا ساقى
اكشف لى عنّك
فى ذاتى وافتح لى دَنَّك
واجعلنى يا حِبِّى أنَّك
آهٍ يا ساقى ، آهٍ يا ساقى
افتح لى باب الحان
واسمعنى من طيب الألحان
وارشفنى من كأسى الملآن
آهٍ يا ساقى ، آهٍ يا ساقى
من يشرب يسكر
من خمرى لما يتفكّر
والمغرور فى علمه أنكر
آهٍ يا ساقى ، آهٍ يا ساقى

لا يعــــــرفُ أمــــــــرى

إلا من يشـــــرب خمــــرى

أحشــــاؤه تصــلى فى جمــــرى

آهٍ يـا ســـــاقى ، آهٍ يـا ساقى

ويقول النابلسى فى تجليات وجه المحبوب ، وهى مقطوعة ذاعت فى حلقات الأذكار عن المتصوفة والعشاق :

تجلــــىّ وجـــه محــــــبوبــى

وهــذا كُــــلّ مطلـــــــوبــى

فيــانـــــار العــــدا ذوبـــــى

بعـــيدٌ عنـكِ مشـــــــروبــى

جمـــال الأهيـــفِ الـزاهــــى

وحســـنُ الأغـــيد البـــاهــى

بــه صـــبرى هـــو الــواهــى

ومـوتــى فـــيه مـــرغـوبــى

رأيــــنا نــــوره أشــــــرق

فكـــنّا بـــرقــه الأبـــــرق

ولا نجــــــدٌ ولا أبْـــــــرقْ

سوى الإبــريــق والـكــوبِ

عليـــنا الخمـــــر قـــد دارت

بهـــا ألبـــــابُنا حـــــارت

وأطـــيار الهـــوى طـــارت
بـــترتيـــــب وأســـــلوب
ملـــيح الـكـــون وافـــانــا
وزاد الحسْـــــنُ احســـــانــا
وحـــــيا يـــوســـف الآنـــا
فقـــــرَّت عـــــينُ يعقـــوب

ويروون أن أبـا حمزة الخراساني كـان يقول : من استشعـر ذكر الموت حبّب الله إليه كل باقٍ وبغَّض إليه كل فانٍ .

وقال له رجل : أوصنى ، فقال له أبو حمزة : هئ زادك للسفر الذى بين يديك .

ومن أشعاره فى معنى الشهود والرضا بالحبيب :

أهــابـــك أن أبـدى إلــيك الذى أخفى
وسرّى يبدى ما يقـــول له طــــــرفى
نهــانى حـيائى منك أن أكـتم الهـــوى
وأغنيتـنى بالفــهم مــنك عـن الكشــفِ

ويروون أن سحنون المحب سئل ذات يوم عن التصوف فقال : هذا مذهب كله جِدّ فلا تخلطوه بشىء من الهزل .

ومن أقواله : من عـلامة الاغترار أن تسىء فيحسن الله إليك فتترك الإنابة والتوبة توهّمًا أنك تســامح فى الهفوات وترى أن ذلك من بسط الحقّ عليك.

ويقول : الفقير الصادق الذى يأنس بالعدم كما يأنس الجاهل بالغنى ، ويستوحش من الغنى كما يستوحش الجاهل من الفقير .

ويقول سحنون واصفًا حال المحبين العارفين :

حنين قلوب العارفين إلى الذكر
وتذكارهم وقت المناجاه للسرِّ
ولا عيْش إلا مع رجال قلوبهم
تحنُّ إلى التقْوى وترتاحُ للذكرِ
أُديرت كئوس للمنايا عليهمو
فأغفوا عن الدنيا كإغفاء ذى السُّكر
همومهمو جوّالةٌ بمعسكر
به أهل ودٍّ الله كالأنجم الزهر
فأجسادهم فى الأرض قتلى بحبّه
وأرواحهم فى الحُجْبِ نحوالعلاتسرى
فما عرّسوا إلا بقرب حبيبهم
وما عرجوا عن مس بؤسٍ ولا ضرٍّ
سكوُنٌ إلى روح اليقين وطيبه
كما سكن الطفل الرضيع إلى الحِجْرِ

وسحنون هو القائل :

كان لى قلبٌ أعيشُ به
ضاع منى فى تقلُّبه
ربّ فارددْهُ علىَّ فقد
ضاق صدرى فى تطلِّبهِ

وأغثْ مادام بـى رمــــقٌ

يـا غـــياث المستغيـــــثِ بـهِ

ويقول الإمام القشيرى :

الغيبة غيبـة القلب عـن علم ما يجرى مـن أحوال الخلـق لاشتغال الحس بما ورد عليه ، ثم قد يغيب عـن إحساسه بنفسه وغيره ، بوارد من تذكر ثواب أو تفكّر عقاب .

ويروون عـن على بن الحسين أنه كان فى سجـوده فوقع حـريق فى داره فلم ينصرف عـن صلاته ، فسئـل عن حـاله فقال : ألهتنـى النار الكبرى عن هذه النار .

ويقول بعض العارفين :

إن المحب يكـون فى المظهر كسائر النـاس ، لكنه فى الحقيقـة غائب عنهم فى طلـب مراده ، ويستوى عنـده الموت والحياة ، مادامـت روحه متعشقة لذات حبيبه مسلمة له فى جميع الأمور . فحياته فناؤه وفناؤه حياتـه ، ولو علـم الناس حقيقـة البقاء فى حضرة الحق وانكشـف لهم الحجاب لم يزاولوا أمـرًا من أمور الدنيا ، وترامـوا على أعتاب البقاء لما فيه من السعادة .

ومن هنا جاء شعرهم :

قـد شربنـــا مــن حبّـه فسكـــرنـا

وعـرفنـا مـن أيـن نـأتـى الجِوارا

ودخلنـــا دار الكـــرامـــة نُـــروى

بيقين الهوى وكنـــا حيـــــارى

اعـــذرونـــا إذا نهيـــم ، فـــإنـــا
في ديـــار الهوى خُلقنـــا أُســـارى
وتـــرانا مـــن حيث نشرب في الكـــأس
سُكـــارى ولـم نكـــن بسُكـــارى
نتحـــــلّى بالعلـــم في كـــل نـــادٍ ،
ونُـــرى بـــالتقـــى علينـــا إزارا
فقلـــوب مثـــل الكـــواكـــب فينـــا
تُظهـــر الـــنور فهـــو لا يتـــوارى

وامتلأت كتب تـــراثنا العربي بالكثير من أجـــوبة المحبين العارفين ، أهل التصـــوف والعشق الإلهي ، لما حفلت به مـــن جوامع الكلـــم ، ومن نماذج بليغة ، رفيعة التعبير ، مشرقة البيان، فضلاً عن امتلائها بكل ما يُزيّن مكارم الأخلاق .

قيل لسهل بن عبد الله المروزيّ : مالك تكثر التصدق ؟ فقال :

لـــو أن رجـــلاً أراد أن يتنقل مـــن دار إلى دار، أكـــان يُبقـــى في الأولى شيئًا؟ .

وقيل للربيع بن خيثم وقد اعتل : ندعو لك بالطبيب ؟

فقال : قد أردت ذلك فذكرت عـــادًا وثمودا وأصحاب الرسّ وقرونًا بين ذلك كثيرًا ، وعلمت أنه كان فيهم الداء والمداوى فهلكوا جميعًا .

وقيل لبعض الزهاد : ما أبلغ العظات ؟ فقال : محلّة الأموات .

وقيل للحســـن البصريّ : كيف ترى الدنيـــا ؟ فقال : شغلني تـــوقع بلائها عن الفرح برخائها .

وقيل للفضيل بن عياض : إن ابنك يقول : وددت أنى فى مكانٍ أرى الناس ولا يروننى .

فقال : يا ويح ابنى ، أفلا أتمها فقال : لا أراهم ولا يروننى .

وقيل لبعض الصوفية : أى شيءٍ أعجب عندك ؟

فقال : قلب عرف الله ثم عصاه .

وقيل لآخر : مالك كلما تكلمت بكى من يسمعك ، ولا يبكى من كلام واعظ المدينة أحد ؟

فقال : ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة .

وقيل للربيع بن خيثم : ما نراك تغتاب أحدًا ، فقال : لست عن حالى راضيًا حتى أتفرغ لذمّ الناس .

وقيل لعبد الله بن المبارك : حتى متى تكتب كل ما تسمع ؟

فقال : لعل الكلمة التى تنفعنى لم أكتبها بعد .

وقيل لصوفى : ما صناعتكم ؟

فقال : حسن الظن بالله وسوء الظن بالناس .

وقيل للشبلى : لم سمى الصوفى ابن الوقت ؟

فقال : لأنه لا يأسف على الفائت ولا ينتظر الوارد .

وقيل لابن السماك : ما الكمال ؟

فقال : الكمال أن لا يعيب الرجل أحدًا بعيب فيه مثله حتى يصلح ذلك العيب من نفسه ، فإنه لا يفرغ من إصلاح عيب حتى يهجم على آخر فتشغله عيوبه عن عيوب الناس ، وأن لا يطلق لسانه ويده حتى يعلم أفى طاعة أم فى معصية ، وأن لا يلتمس من الناس إلا ما يعلم أنه

يعطيهم من نفسه مثله ، وأن يسلم مـن الناس باستشعار مداراتهم ، وتوفيتـه حقوقهم ، وأن ينفـق الفضل من مـاله ويمسك الفضـل من قوله.

وقيل للشبلى : من الرفيق ؟

فقال : من أنت غاية شغله .

ويقول ابن عطاء الله السكندرى :

دخلت على الشيخ ـ رضى الله عنه ـ وفى نفسى العزم على التجريد قائلاً فى نفسـى : « إن الوصول إلى الله تعـالى على هذه الحالة بعيـد مع الاشتغال بالعلـوم الظاهرة ووجود المخالطة للنـاس » فقال لى من غير أن أسأله :

صحبنى إنسـان مشتغل بالعلوم الظـاهرة ومتصدر فيها فذاق من هذه الطريق شيئًا ، فجاء إلىّ فقال : يا سيدى أخرج عما أنا فيه وأتجرد لصحبتك ، فقلت لـه : ما الشأن ذاك ، ولكن امكث فيما أنـت فيه ، وما قسم الله لك على أيدينـا فهو إليك واصل ، ثم قال الشيـخ ـ ونظر إلىّ ـ «وهكـذا شأن الصـدّيقين لا يخرجون مـن شـىء حتى يكـون الحق سبحانه وتعالى هو الذى يتولى إخراجهم ، فخرجت من عنده وقد غسل الله تلك الخواطر من قلبى ، ووجدت الراحة بالتسليم إلى الله تعالى » .

ويقول ابن عطاء الله :

إنما يستوحش العباد والزهاد من كل شىء ، لغيبتهم عن الله فى كل شىء ، ولو شهدوه فى كل شىء ، لم يستوحشوا من شىء .

ويقول :

علم منك أنك لا تصبر عنـه فأشهدك ما برز منه . لـو أنك لا تصل إليه إلا بعد فناء مساويك ، ومحو ذنـوبك لم تصل إليه أبدًا ، ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه غطى وصفك بوصفـه ،ونعتك بنعته ، فوصلك إليه بما منه إليك لا بما منك إليه .

ويقول :

حظ النفس فى المعصية ظاهر جلىّ ، وحظها فى الطاعات باطن خفى ، ومداواة ما يخفى صعب علاجه .

ربما دخل الرياء عليك من حيث لا ينظر الخلق إليك .

ويقول ابن عطاء الله فى استغاثاته :

إلهى : أنا الفقير فى غناى ، فكيف لا أكون فقيرًا فى فقرى .

إلهى : أنا الجاهل فى علمى ، فكيف لا أكون جهولاً فى جهلى .

إلهى : وصفت نفسك باللطف والرأفة بى قبل وجود ضعفى أفتمنعنى منهما بعد وجود ضعفى .

إلهى : إن ظهرت المحاسن منى فبفضلك ولك المنة علىّ ، وإن ظهرت المساوىء فبعدلك ولك الحجة علىّ ، ها أنا أتوسل إليك بفقرى إليك ، وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك ؟ أم كيف أشكو إليك حالى وهى لا تخفى عليك ، أم كيف أترجم لك بمقالى وهو منك برز إليك ؟ أم كيف تخيب آمالى وهى وفدت إليك ؟ أم كيف لا تحسن أحوالى وبك قامت وإليك ؟

وينفتح أمام قلبه باب الرجاء فيقول :

إلهى : كلما أخرسنى لؤمى أنطقنى كرمك ، وكلما آيستْنى أوصافى

أطمعتنى منّتك .

وينكر ابن عطـاء الله أن تكون الكائنات هـى الشــاهد على وجود الله فيقول :

إلـهى : كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك ؟

أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟

متى غبت حتـى نحتاج إلى دليل يدل عليك ؟ ومتـى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك .

إلـهى : أمرت بـالرجـوع إلى الآثار ، فـأرجعنى إليهـا بكسوة الأنـوار ، وهداية الاستبصار ، حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها مصـون السرّ عن النظـر إليها ، ومـرفـوع الهمة عـن الاعتماد عليها، إنك على كل شىء قدير .

ويتلهف على الوصول إلى الله فيقول :

إلـهى : منك أطلب الـوصول إليك ، وبك أستـدل عليك فاهدنـى بنورك إليك ، وأقمنى بصدر العبودية بين يديْك .

إلـهى : تقدس رضـاك عن أن تكون له علـة منك ، فكيف تكون لـه علّة منى ، أنت الغنى بذاتك عـن أن يصل إليك النفع منك ، فكيف لا تكون غنيًا عنى .

ويقـول ابـن عطـاء الله : إلهى ، إن رجـائى لا ينقطـع عنـك وإن عصيتك، كما أن خوفى لا يزايلك وإن أطعتك .

ويشير الدكتور زكى مبارك فى كتابه عن التصوف الإسلامى إلى أن لابن عطاء الله كلمات سـارت مسير الشمس ، فكانت شاهـدًا على قوته

الروحية ، من بينها قوله : إلهى ، هذا ذلى ظاهر بين يديك ، وهذا حالى لا يخفى عليك ، بك أستنصر فانصرنى ، وعليك أتوكل فلا تكلنى ، وإياك أسأل فلا تخيّبنى وفى فضلك أرغب فلا تحرمنى ، ولجنابك أنتسب فلا تبعدنى ، وببابك أقف فلا تطردنى .

ويقول إسحاق بن إبراهيم السّرخسّى : سمعت ذا النون وفى يده الغل ـ أى القيد ـ بعد أن سيق إلى الخليفة المتوكل من مصر إلى بغداد مقيدًا مغلولاً لأن بعض من لم يفهموه وشوا به واتهموه فى دينه ـ وهو يساق إلى الموت والناس يبكون حوله وهو يقول :

هذا من مواهب الله تعالى ومن عطاياه ، وكلٌّ فعاله عذب حسنٌ طيب، ثم أنشد :

لك من قلبىَ المكان المصونُ
كلُّ لوم علىّ فيك يهونُ
لك عزمٌ بأن أكون قتيلا
فيك ، والصبر عنك ما لا يكونُ

ومن أقوال ذى النون : الصوفية قوم آثروا الله على كل شىء فآثرهم على كل شىء . ومن وصاياه المأثورة عند الصوفية :

ليس بذى لبٍ من كاس ( أى التزم بالكياسة ) فى أمر دنياه وحمق فى أمر آخرته ، ولا من سفه فى مواطن حلمه ، وتكبّر فى مواطن تواضعه، ولا من فقد منه الهوى فى مواضع طعمه ، ولا من غضب من حق إن قيل له ، ولا من زهد فيما يرغب العاقل عن مثله ، ولا من زهد فيما يزهد الأكياس فى مثله ، ولا من استقل الكثير من خالقه عز وجل ،

واستكثر قليل الشكر من نفسه لغيره ، ولا من نسى الله فى مواطن طاعته ، وذكر الله فى مواطن الحاجة إليه ، ولا من جمع العلم فعرف به ثم آثر عليه هواه عند متعلمه ، ولا من قلّ منه الحياء من الله على جميل ستره . ولا من أغفل الشكر عن إظهار نعمته ، ولا من عجز عن مجاهدة عدوه لنجاته إذا صبر عدوه على مجاهدته ، ولا من جعل مروءته لباسه، ولم يجعل أدبه درعه وتقواه لباسه ، ولا من جعل علمه ومعرفته تظرّفًا وتزيينا فى مجلسه .

ثم يقول :

أستغفر الله ، إن الكلام كثير ، وإن لم تقطعه ينقطع ، لا تخرجوا من ثلاثة : النظر فى دينكم بإيمانكم ، والتزود لآخرتكم من دنياكم والاستعانة بربكم فيما أمركم به ، ونهاكم عنه .

ويقول يحيى بن معاذ : يكاد رجائى لك مع الذنوب ، يغلب رجائى لك مع الأعمال ، لأنى أجدنى أعتمد فى الأعمال على الإخلاص ، وكيف أحررها من الرياء وأنا بالآفة معروف ، وأجدنى فى الذنوب أعتمد على عفوك ، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف ؟

ويروى السّراج الطوسى أن رجلًا وقف على الشبلى فقال له : أى صبرٍ أشدّ على الصابرين ؟ فقال : الصبر لله ، فقال الرجل : لا ، فقال الشبلى : الصبر مع الله ، فقال الرجل : لا ، فغضب الشبلى وقال : ويحك، فماذا ؟فقال الرجل : الصبر من الله عز وجل .

فصرخ الشبلى صرخة كادت تُتلف روحه .

ثم يقول السراج : وسألت ابن سالم بالبصرة عن الصبر فقال : هو

على ثلاثـة أوجه : متصبر وصابـر وصبّار ، فـالمتصبر من صبر فى الله تعالى ، فمرة يصبر على المكاره ومرة يعجز ، والصابر من يصبر لله وفى الله ولا يعجز ، وأما الصبّار فذلك الذى صبره فى الله ولله وبالله ، فهذا لو وقعت عليه جميع البلايا لا يعجز ولا يتغير من جهة الوجوب والحقيقة لا من جهة الرسم والخليقة .

وبـانتقال التجـربة الصـوفية فى التعبير عـن الحب الإلهى ـ نثـرًا وشعرًا ـ إلى محيى الدين بن عربى ، تزداد لغتها قوة وحرارة ورصانة، وتمتلئ بـالتعـابير والاصطـلاحـات والـرمـوز التـى يتطلـب فهمهـا واستيعابها شروحًـا وذيولاً وإفاضات تفتـح بها مغاليق ذلـك العالم الواسع الرحيـب الذى يحلق فيه ابن عربى ويطـوف ، فى مشاهد أنسه ومجالى تجلياته .

ويعده الـدكتور زكى مبارك فى كتـابه « التصوف الإسلامـى » من طبقة الكتـاب العظام ، ويرى أن نثره يمتـاز بميزة عجيبة ، هـى أنه لا يشغلك بالألفـاظ ، وإنما يشغلك بالمعانـى ، ففى كل صفحة مـن كتبه معركة عقلية ، فالقوة البيانية عنده قوة فكرة لا قوة تهويل .

يقول ابن عربى :

كنت أطوف ذات ليلة بالبيت فطاب وقتى ، وهزنى حال كنت أعرفه، فخرجـت من البلاط مـن أجل النـاس وطفت على الرمـل ، فحضرتنى أبيات فـأنشدتها أسمـع بها نفسى ومـن يلينى لـو كان هنـاك أحد ، فقلت:

ليت شعرى هل دروا　　أىّ قلــب ملكــوا
وفــؤادى لــو درى　　أىَّ شعــب سلكــوا
أتـــراهم سلمــــوا　　أم تــراهـم هلكــوا
حــار أربــاب الهوى　　فى الهوى وارتبكــوا

فلم أشعـر إلا بضربة بين كتفـىّ بيد ألين مـن الخز ، فالتفـت فإذا بجارية من بنات الـروم لم أر أحسن وجهًا ولا أعذب منطقًا ، ولا أرقَّ حاشية ، ولا ألطف معنى ولا أدق إشارة ، ولا أظرف محاورة منها ، قد فاقت أهل زمانها ظرفًا وأدبًا وجمالاً ومعرفة ، فقالت : يا سيدى كيف قلت ؟ فقلت :

ليــت شعرى هل دروا　　أى قلـــب ملـــكوا

فقالت :

عجبًا منك وأنت عارف زمانك ، تقول مثل هذا ؟
أليس كل مملوك معروفًا ؟ وهـل يصح الملك إلا بعد المعرفة وتمنى الشعـور يؤذن بعدمهـا ، والطريق لسـانٌ صـادق ، فكيف يجوز لمثلك أن يقول هذا ؟ قـل يا سيدى ، فماذا قلت بعده ؟

قلت :

وفــؤادى لــو درى　　أى شِعــبٍ سلــكوا

فقالت :

يا سيدى ، الشِّعـب الذى بين الشغاف والفؤاد هـو المانع له

من المعرفة ، فكيف يتمنى مثلك ما لا يمكن الوصول إليه إلا بعد المعرفة والطريق لسان صدق ، فكيف يجوز لمثلك أن يقول هذا ؟ يا سيدى ، فماذا قلت بعده ؟

فقلت :

حار أربابُ الهوى في الهوى وارتبكوا

فصاحت وقالت :

يا عجبا ، كيف يبقي للمشغوف فضلة يحار بها ، والهوى شأنه التعميم يخدر الحواس ، ويذهب العقول ، ويدهش الخواطر ويذهب بصاحبه في الذاهبين ، فأين الحيرة وما هنا باق فيحار ، والطريق لسان صدق والتجوز من مثلك غير لائق ، فقلت :

يا بنت الخالة ، ما اسمك ؟ فقالت : قرة العين ، فقلت : لى ! ثم سلمتُ وانصرفت ثم إنى عرفتها بعد ذلك وعاشرتها فرأيت عندها من لطائف المعارف ما لا يصفه واصف .

ومن الآثار الجميلة لابن عربى أبيات يقول فيها :

ذبت اشتياقًا ووجدًا فى محبتكم
فآه من طول شوقى آه من كمدى
يدى وضعت على قلبى مخافة أن
ينشق صدرىَ لمّا خاننى جلدى
ما زال يرفعها طورًا ويخفضها
حتى وضعت يدى الأخرى تشد يدى

ومن منظـوماتــه التى يقعّـد فيها للتصـوف ، ويضمنها خـلاصة أفكاره ونظرته ـ فى الإشارة إلى الألفة بين العبد والرب ـ مقطوعة يقول فيها :

| | |
|---|---|
| كلَّما قلــت : سيـــدى | قــال لى : أنـت مــالكـى |
| ســـدَّ والله كـــــون | عبـدى علىَّ مســـالكـى |
| مــالنـــا عنــه صـــارف | فى جميـــــــع المداركِ |
| لســـتُ فى عينـــه ولا | فعلـــهِ بــالمشـــاركِ |
| فهـــو المالــك الــذى | ليـس يـدعـى بمالــكِ |
| وأنـــا الخادم الــذى | يعْتنـــى بــالممالــكِ |
| قلــت يــاربّ عصمــة | مـن سبيــل المهـالــك |
| قال : سمعا فأنت عبدى | مـــــن أهـــل الأرائك |
| فى سرورٍ وغبطـــــــةٍ | لا مــــن أهــل الــدرائك |

ويوضـح الـدكتور محمود قاســم فى كتابه عن ( الـخيـال فى مذهب محيى الدين بن عربى ) كيف سبـق ابن عربى شعراء الرومانتيكية فى العصر الحديث إلى إدراك أن الـخيال أعظم قوة خلقها الله ، وهـو يرمـى فى المقام الأول إلى الربـط بين الكشـف الصـوفى وهذه القـدرة التى يصـفها بــأنها استمرار لعمليــة الخلـق الإلهى : « فليـس للقدرة الإلهيــة فيما أوجدته أعظم وجودًا من الـخيــال ، فبه ظهرت القدرة الإلهية والاقتدار الإلهى ، فهو أعظم شعـائر الله على الله ، ومن قوة حكم سلطانه ما تثبته الحكماء ، مع كونهم لا يعلمون مما قالــوه ، ولا يوفونه حقه ، وذلك أن

الخيال ـ وإن كان من الطبيعة ـ فله سلطان عظيم على الطبيعة بما أيده الله من القوة الإلهية » .

ومن هنا كان تفسير ابن عربى لما أنعم به الله عليه من فتوحات ضمنها كتابه « الفتوحات المكية » القائم على أن هذا الكتاب ليس إلا وليد تلك الصور الخيالية التى كان يتلقاها ـ كمحب ـ بعين الخيال فى حال اليقظة وأحيانًا فى أحلامه ، ويصف هذا كله بأنه نوع من الإلقاء الإلهى الذى ينزل على قلبه . ويلحّ ابن عربى ـ خشية المسارعة إلى اتهامه ـ فى تأكيد أن ما يتلقاه من فيوض وفتوحات ليس شبيهًا بالوحى الذى اختص الله به رسله إذا انقطعت النبوة والرسالة بموت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإنما هو جود إلهى ، أو هو ضرب من الحكمة ، تلك الحكمة التى لا يعلمها إلاَّ من أوتيها « فهى هبة من الله تعالى » كما وهبنا وجود أعياننا ولم نكن شيئًا وجوديًّا .. وهذا الكتاب من ذلك النمط .. فوالله ما كتبت منه حرفًا إلا من إملاءٍ إلهى ، وإلقاء ربانى ، أو نفث روحانى فى روع كيانى .. هذا جملة الأمر مع كوننا لسنا برسل مشرعين ولا بأنبياء مكلفين ، فإن رسالة التشريع ونبوة التكليف قد انقطعت عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلا رسول بعده ، ولا نبى يشرع ولا تكليف ، وإنما هو علم وحكمة وفهم من الله فيما شرعه على ألسنة رسله وأنبيائه عليهم سلام الله .. وما خط فى لوح الوجود من حروف العالم وكلمات الحق ، فالتنزيل لا ينتهى بل هو دائم دنيا وآخرة :

الله أنشأ من طىٍّ وخولان

جسمى ، فعدلنى خلقا وسوانى

وأنشـــأ الحق لى روحـــا مطهـــرة
فليـس بنيـان غيرى مثـل بنيـانـى
إنــى لأعرف روحـا كـان ينزل بـى
مـن فـوق سبع سماوات بفـرقـان

يريد قوله تعالى : ﴿ إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانًا ﴾ .

[ سورة الأنفال : الآية ٢٩ ]

ويؤكد الدكتور محمود قاسم[١] كما يؤكد سائر الباحثين أن ابن عربـى فى نثره وشعـره ـ لم يحب أحـدًا فى الحقيقة سـوى الله ، ولكنه احتجب عن الله تعالى بحب زينب وسعاد وهند وليلى والدينار والدرهم، فكل هذه الضروب من الحب ليسـت إلا صـورًا أو رموزًا لحقيقة كبرى لا يمكن التعبير عـن جمالها وجلالها ، إلا إذا سلك العاشـق لها سبيل الغزل والتشبيب لكـى يصور فيها ما استطاع ، ما يختلـج بفؤاده من حب وهيام .

يقول ابن عربى :

| | |
|---|---|
| كـل مـا أذكـره مـن طلـل | أو ربـوع أو مغان كـل مـا |
| وكذا إن قلـت ها أوقلـت يـاً | وألا ، إن جـاء فيه ، أو أمـا |
| وكذا إن قلت هـى أوقلت هو | أوهمو،أوهنّ جمعًا ، أو هما |
| وكذا إن قلـت : قد أنجـد لى | قـدر فى شعـرنـا أو أتـهما |
| وكذا السحب إذا قلـت بكت | وكذا الـزهر إذا مـا ابتسما |

---

( ١ ) الخيال فى مذهب محيى الدين بن عربى ( فصل عن الحب الإنسانى والحب الإلهى ) للدكتور محمود قاسم .

أو أنـــادى بحـداةٍ يممـوا بانة الحاجز أو ورق الحمى

أو بـدور فى خـدودٍ أفلـت أو شموسٍ أو نبـاتٍ أنجما

أو بروق أو رعـودٍ أو صبا أو ريـاح أو جنـوب أوسما

أو طـريق أو عقيـق أو نقـا أو جبـالٍ أوتـلال أو رمـا

أو نســاءٍ كـاعبـات نُهدٍ طالعات كشموس أو دمـى

كـل مـا أذكره ممـا جـرى ذكـره ، أو مثلــه أن تفهما

منـه أسرار وأنـوار جلـت أو علت جـاء بها رب السما

لفـؤادى أو فـؤادٍ مـن لـه مثل مـالى من شروط العُلما

صفـة قـدسيــةً علـويـة أعلمـت أن لصدقـى قدمـا

فاصرف الخاطرعن ظاهرها واطلب الباطـن حتى تعلما

ومن هنا يمكن تذوق وتفسير الكثير من الآثار الشعرية لابن عربى، فى الحب الذى وجـده ذوقا ، ففاق كـونه عشقـا مفرطا ، وهـوى مقلقا وغراما ونحولا ، وامتناع نوع ، دون أن يتحدد المحبوب .

يقول ابن عربى :

علقـت بمـن أهـواه عشريـن حجـة
ولم أدر ما أهوى ، ولم أعرف الصبرا

ولا نظـرت عينى إلى حســن وجههـا
ولا سمعـت أذنـاى قـط لها ذكـرا

إلى أن تراءى البرق من جانب الحمى
فنعمنـى يـومـا ، وعــذبنـى دهـرا

ويقول فى المعنى نفسه :

علقت بمن أهـواه من حيث لا أدرى

ولم أدر من هـذا الذى قـال لا أدرى

فقد حرت فى حالى وحارت خواطرى

وقـد حـارت الحيرات فىَّ وفى أمـرى

فبينـا انـا مـن بعـد عشريـن حجـة

أتـرجـم عـن حــب يعـانقـه سرى

ولم أدر من أهوى ، ولا أعـرف اسمه

ولم أدر من هذا الـذى ضمَّه صدرى

إلى أن بـدا لى وجههــا مـن نقــابها

كمثـل سحاب الليـل أسفـرعن بـدر

فقلـت لهم : مـن هـذه ؟ قيـل هـذه

بُنَيَّةُ عين القلـبِ ، بنت أخـى الصدر

فكبرت إجــــلالا لها ، ولأجلهــــا

فليلى بها أربــى على ليلــــة القــدرِ

ويروى ابن عربى فى كتابه ، « محاضرة الأبرار ومسامرة الأخبار » حديثًا عن ابن باكويه عـن أبى الفضل القطان عن جعفر الخلدى قال : سمعت الجنيد يقول : حججت على الوحدة فجاورت مكة فكنت إذا جن الليل دخلت أطوف ، فإذا بجارية تطوف وهى تقول :

أبى الحب أن يخْفـى وكم قـد كتمته

فـأصبـح عنـدى قـد أنـاخ وطنّبـا

إذا اشـتد شـوقى هــام قلبى بـذكره

وإن رمـت قربـامن حبيبـى تقربـا

ويبدو فأفنى ، ثم أحيا بذكره
ويسعدنى حتى ألَذَّ وأطربا

فقلت لها : يا جارية ، أما تتقين الله فى هذا المكان ، تتكلمين بهذا الكلام ؟ فالتفتت إلىّ وقالت : يا جنيد :

| | |
|---|---|
| لولا التقى لم ترنى | أهجر طيب الوسن |
| إنَّ التقى شردنى | كما ترى عن وطنى |
| أفر من وجدى به | فحبه هيّمنى |

ثم قالت : يا جنيد ، تطوف بالبيت أم برب البيت ؟ قلت أطوف بالبيت . فرفعت رأسها إلى السماء وقالت : سبحانك ، ما أعظم شأنك فى خلقك ، خلق كالأحجار يطوفون بالأحجار ، ثم أنشأت تقول:

يطوفون بالأحجار يبغون قربةً
إليك ، وهم أقسى قلوبًا من الحَجرْ
وتاهوا ، ولم يدروا من التيه من همو
وحلوا محل القرب فى باطن الفِكرْ
فلو صدقوا فى الود غابت صفاتهم
وقامت صفات الود للحق فى الذِّكرْ

قال الجنيد : فغشى علىَّ من قولها ، فلما أفقت لم أرها .

والمتأمل فى آثار هؤلاء المتصوفة والعشاق الهائمين فى ساح الحب الإلهى يرى أنها تصدر عن مبدأين يحكمان الأمر كله ، أولهما أن العقل الإنسانى وحده غير كاف فى الهداية إلى الله ، فليس فيه غناء فى هداية

الإنسان إلى الإيمان الحق . ومن هنا ، فهم جميعًا يلجأون إلى القلب واستشعار الحب الإلهى طلبًا لنور الهداية والإشراق العلوى . وهى السبيل المألوفة للنجاة عندهم . فالعقل ـ فى رأيهم ـ لا يستطيع حل كثير من المسائل .

يقول الغزالى وهو يتحدث عن الصوفية : « وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع ، فظهر لى أن أخص خواصهم مالا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال ، وتبدل الصفات[1] وكان قد حصل معى من العلوم التى درستها والمسالك التى سلكتها فى التفتيش عن صنفى العلوم الشرعية والعقلية ، إيمان يقينى بالله تعالى ، وبالنبوة ، واليوم الآخر ، فهذه الأصول الثلاثة من الإيمان كانت قد رسخت فى نفسى ، لا بدليل معين محرر ، بل بأسباب وقرائن ، وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها » .

ويوضح الغزالى أن وصوله إلى طريق الأمن واليقين لم يكن بنظم دليل وترتيب وكلام ، بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر :

« وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن ذلك النور ينبغى أن يطلب الكشف ، ومادام الأمر للذوق والكشف ، فطريق الصوفية إذن مفتاحها هو استغراق القلب بالكلية بذكر الله وآخرها الفناء بالكلية فى الله » .

والمبدأ الثانى فى فكر هؤلاء المتصوفة من العشاق أن العاطفة

---

(١) المنقذ من الضلال ـ للغزالى تقديم الدكتور / عبد الحليم محمود .

لا العقل هـى السبيل للوصـول إلى الله ، يقول الغزالى « كـان ذلك أول حال رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـ حين تبتـل ، حين أقبل إلى غار حراء حين كان يخلو فيـه بربه ويتعبد ، حتى قالـت العرب : إن محمدا عشق ربه » .

وهكذا كان الحب الجسـدى فى آثار هؤلاء العشاق طـريقًا إلى الحب الإلهى ، إذ الجمال فى الخليقـة مـرآة جمال الله ، وهـؤلاء يـذهبـون فى شرحهـم لخلـق الكـون إلى أن الأصـل فيـه الجمال الإلهى ، وذلـك أن الصفة الجوهريـة فى الجمال هى أنه بطبعه ميـال إلى الظهور والإيحاء بنفسه . وهذا هو الباعـث لدى الجمال الأقدس أن يخلق ليعرف بهم ، ويعتمد الصوفية فى هذا على الحديث القدسى : « كنت مخفيا فأردت أن أعرف فخلقت الخلق ، فبى عرفونى » .

ولما أراد ذو الكمال المطلق والجمال الاسمى أن يعرف ، كان لابد أن يعـرف بمخلوقـات فيها نقـص وفيها شر ، ليـدل نقصهم على كمالـه وخيره كما يدل الظلام على النـور ، وقد بقيت بالضرورة فيهـم لمحات من أنوار مشوبة بألوان ظلمات ، وهذه اللمحات هى مرآة النور المطلق الـذى لا لون لـه ، وتنأى الخلائق عـن الله بمقدار انغماسهـا فى المادة وظلماتها ، لأنها تبعد بذلك عن النور المطلق المتصف به واجب الوجود. وتقرب مـن الكمال بمقدار بعدهـا عن ظلمات المادة وتعلقها بمظـاهر الجمال والخليقـة ، وهذا الجمال هـو مرآة ذى الجلال ، حتـى ترقـى بالحب الإلهى إلى الفناء فى الذات الإلهية ، وتعـود بذلك إلى أصلها الذى صدرت عنه . فـالجمال الإلهى هو الأصل فى الخليقة ، والفنـاء فيه عن

طريق المحبة هو طريق الارتقاء إلى العلم الأقدس ، ومن أسباب المحبة التأمل فى جمال الوجود ، إذ أن ذلك الجمال فيض من جمال واجب الوجود .

فهؤلاء العشاق من المتصوفة ـ بتأملهم فى جمال الخلق ـ يتقربون إلى جمال الحقّ ، وبطول تأملهم فيه ، يعتريهم ذلك الشعور الفياض ، الذى يستغرقون فيه ـ حتى يصلوا إلى حالة الوجود ـ ويغيبون عن وعيهم الحسّى ويعتريهم من الهيام بالله ما يرقصون فيه طربًالاهجين بذكر الله أو مردِّدين اسمه على لسانهم فى حلقات الذكر .

* * *

وهذه النماذج المختارة من قصائد الحب الإلهى عند أشهر العشاق والمتصوفة وأصدقهم تجربةً ووجدا ذات قيمة فنية وإنسانية رفيعة ، حتى وإن لم نستطع الوصول إلى أعماق معانيها ودلالاتها الخبيئة . فهى أولاً تجارب حياتية صادقة لدى هؤلاء المتصوفة الحقيقيين الذين لم يكونوا فى طريقهم أو مذهبهم بأدعياء . ومن شأن هذه التجارب الصادقة أن تثرى الحياة إذا انسكب تصويرها والتعبير عنها من خلال أقلام ذوى المواهب والقدرة ، وفى هذا يفترق الأدب الصوفى عن أدب الصنعة والتكلف ، وعن أدب التكسب والارتزاق الذى منى به الشعر الغنائى العربى ، فاستنفد طاقات شعرية خلاقة أو كاد يستنفدها ، كانت جديرة بما هو أرقى وأسمى من عطاء الفن والخلود لو انصرفت إلى تصوير ما عانته من تجارب الحياة والعصر ، مخلصة فى التعبير عن هواجس النفس وهموم الذات وتجارب الوجدان . ولقد

كان الصدق دعامة الأدب الصوفى فى عصوره الأصلية - قبل أن يدركه التقليد على أيدى فقراء الموهبة وفاقدى التجربة - وكان صدق التناول فيما بين الشاعر ونفسه سبيلا إلى التجويد فى التعبير عن حميّا هذه التجارب ونضج تصويرها الفنى .

ومن هنا ، يلاحظ المتأملون فى هذه النماذج الرفيعة ، أن أدب الصوفية فى شعرهم ونثرهم - يخفى دلالته الايجابية المستترة على الرغم من مظهره السلبى الخادع وطابع تشاؤمه الموغل فى الحزن . ذلك أن هذا الأدب - فى مجموعه - كان هروبًا من الحياة وانسحابًا من الواقع المثقل بالأسى والظلم والتخلف ، ولكن المتصوفة عرفوا كيف يضفون على هذا الهرب أبعادًا تتجاوز مجرد الشكوى والأنات ، وحزن الضعف والتوانى - عندما هربوا بفكرهم إلى الطبقات العليا من أجواء الروح المتعالية والنفس المتسامية والخيال الحرّ الطليق .

صحيح أن هؤلاء الصوفية - من العشاق - قد عزفوا عن نشدان السعادة فى هذه الحياة ، لأنهم يائسون من الظفر بها فى الحياة الدنيا ، واتجهوا مخلصين إلى نشدان سعادتهم فى العالم الآخر داعين إلى التعجيل بالرحيل من هذه الدنيا عازفين عن كل ما تحفل به من ماديات ومتع موقوته ، ولكنهم فى تبرير مسلكهم هذا قد صوروا - فى صدق وروعة وأصالة - ما حفلت به عصورهم من شرور ومآثم ، وكانوا فى هذا المجال أعمق إدراكًا وأقوى دلالة من سواهم من الكتاب والشعراء الذين جاروا عصورهم ومالئوا المستبدين بها ، وتستروا على ما زخرت به من زيف وطغيان ، وقد كان هذا الطغيان فى أكثر حالاته طغيان

سلطان المال فى تلك المجتمعات التى استبد فيها سلطان الفرد كما انسحقت الغالبية تحت رحى الإقطاع فتلاشت مواهب كثيرة ، وتبددت طاقات خلاقة ووئدت أصوات كانت تُبشّر بانطلاقات جديدة عارمة ، وانطمست معالم الرأى السليم والفكر الناضج .

لهذا ، فلن نجد فى تاريخ الآداب الإسلامية هجاء للملوك والمستبدين أشد مما صدر عن الصوفية ، ولا ضيقًا بالمال وعُباده والمستعبدين للناس عن طريقه كما نجد فى أشعار الصوفية وأدبهم كلّه . إلى جانب ما قضوا به على الأثرة وحبّ الذات فيما صوروا ودعوا، فالحب عندهم ـ يجب أن يتسع مجاله لحب الإنسان وخدمته والرثاء له وهدايته ، دون بغض لأحد أو انتقام من أحد . ولعل « الحلاج » ـ الذى عاش فى القرن الثالث الهجرى ـ أكثر من التصقت به هذه الإيجابية بين الصوفية ، وتتفق الروايات القديمة فى سوقها لأخباره على الإشارة إلى دوره البارز فى عصره حين دعا إلى مذهب سياسى وروحى يقوم على فقه معين ورياضيات صوفية تتميز كلها بالتطرف والشدة والإصرار على الوصول إلى الهدف مستهينًا بالعقبات ولو بلغت الموت نفسه ، وحاول أن يجد له أنصارًا بين الفقراء والطوائف المختلفة والمعارضين للدولة العباسية دون جدوى .

وفى أثناء القحط والمجاعة وخطر الدولة الفاطمية ـ على الدولة العباسية الموشكة على السقوط أمامها ـ وارتفاع الأسعار ، وكسر السجون وإحراق الجسور وسقوط الوزارة وعزل الخلفاء ، وجد الوزير حامد بن عباس أن قتل الحلاج قد يشغل الناس ويخفف من

التوتـر الاجتماعى والسياسـى ويلقـى الرعـب فى قلوب المعـارضـين ، وانتهى الأمر بالحكم على الحلاج بالإعدام ، ضرب ألف جلدة ثم قطعت أطرافـه الأربعة وضربت عنقه وأحـرقت جثته ثم ذرى رمـاده فى دجلة وحمل رأسـه إلى خـراسـان حيث كـان لـه فيهـا أصحـاب وأتبـاع ومريدون[1].

يقول الحلاج فى وصف موعد حب :

لى حبيـــب أزور فى الْخلـــوات
حــاضر غــائب عــن اللحظــات
مــا تــرانــى أصغــى إليــه بسرى
كــى أعــى مـا يقــول مـن كلمات
كلماتٍ مــن غير شكــلٍ ولا نقــطْ
ولا مثــل نغْمــةِ الأصـــواتِ
فكــأنــى مُخاطــبٌ كنــتَ إيــاه
على خــاطــرى ، بـذاتـى لــذاتـى
حــاضرٌ غــائب قــريــبٌ بعيــدٌ
وهــو لم تحْوهِ رســومُ الصفــاتِ
هــو أدنــى مـن الضمير إلى الـوهــم
وأخفــى مــن لائح الخطــراتِ

ويقول الحلاج ــ وهو معنى انتهبـه من بعده كثير مـن الشعراء ،

(١) ديوان الحلاج « المقدمة » تحقيق الدكتور / كامل مصطفى الشيبى ( بغداد ) .

وأداروه على محاور عدة فى الغزل الحسّى ، بما يخرجه عن طابعه الصوفىّ الأصيل ـ :

أنا من أهوى ، ومن أهوى أنا
نحن روحان حلَلْنا بدَنا
نحن ، مذكناً على عهد الهوى
نَضربُ الأمثال للناس بنا
فإذا أبصْرتنى أبصْرته
وإذا أبصرْته أبصرْتنَا
أيها السائل عن قصّتنا
لو ترانا لم تُفرق بيْننا
روحه روحى وروحى روحه
من رأى روحين حلّت بدَنا

ومن الأشعار المنسوبة إلى الحلاج ، والعميقة الدلالة فى الإبانة من مذهبه وأسلوبه فى تمثل الحب الإلهى ، مقطوعة ذاعت شهرتها على الألسنة والأقلام ونسب بعض أبياتها إلى شعراء آخرين من شعراء العصر العباسى وأصبح جزءًا من تراثه الغنائى .

يقول فيها الحلاج :

والله ما طلعت شمس ولا غربت
إلا وحبّك مقرونٌ بأنفاسى
ولا جلستُ إلى قوم أُحدّثهم
إلا وأَنت حديثى بين جُلّاسى

ولا ذكرتـك محزونـًا ولا فـرحـًا
وإلا وأنـت بقلبـى بينَ وسـواسـى
ولا هممـت بشرب الماء مـن عطـش
إلا رأيـت خيـالاً منـك فى الكـاس
ولـو قـدرْت على الإتيـان جئتكمـو
سعيًا على الوجـه أو مشيًا على الراس
ويـا فتـى الحىِّ إن غنيتَ لى طـربـًا
فغـنِّ وارحْمتـًا من قلبـك القـاسـى
مـا لى وللنـاس كم يلحـوْننـا سفهـًا
دينـى لنفسـى وديـن الناسِ للنـاسِ

ويبدو أن المستشرق الفرنسـى ما سينيون هو صـاحب الفضل فى إحيـاء ذكر الحلاج منـذ بدايـة القرن العشريـن ، عندمـا نشر ديوانـه وكتابه الهام الطـواسين والنصوص التى دارت حولـه ، ونبّه إلى أهمية الحلاج من خـلال رسالته عنه التـى أسماها « عذاب الحلاج » ومقـاله الهام الذى أسماه « المنحنى الشخصـى فى حياة الحلاج » حيث تحدث عن عظاتـه ومواجده وبثه لـلآراء الإصلاحية واتصالـه ببعض وجوه الدولـة العباسية وجمع الفقراء مـن حوله ، ممـا أدى إلى نهاية الحلاج المأساوية جزاء فكره وثوريته ، وهو المعنى نفسه الذى أخذ به الشاعر الراحل صلاح عبـد الصبور حين كتب مسرحيته الشعرية عـن مأساة الحلاج ، جـاعلاً منـه داعية ورمـزًا للثـورة والتمرد ونصيراً للفقـراء والمعدمين ، وشهيدًا من شهداء الكلمة والإيمان بالحرية .

يقول صلاح عبد الصبور على لسان الحلاج :

أراد الله أن تجلى محاسنه وتستعلن أنواره
فأبدع من أثير القدرة العليا مثالاً صاغه طينا
وألقى بين جنبيه ببعض الفيض من ذاته
وحلاه وزينه ، فكان صنيعه الإنسان
فنحن له كمرآةٍ ، يطالع فوق صفحتها
جمال الذات مجلوا ، ويشهد حسنه فينا
فإن تصْفُ قلوب الناس ، تأنس نظرة الرحمن
إلى مرآتنا ، ويديم نظرته ، فتحيينا
وإن تكدُرْ قلوبُ الناسِ يصرفْ وجهه عنَّا
ويهجرنا ويجفونا
وماذا يفعل الإنسان إن جافاه مولاه ؟
يضيق الكون فى عينيه ، يفقد ألفة الأشياء
تصير الشمس فى عينيه أذرعةً من النيران
يُلقى ثقلُها المشّاء
على وجه السَّما والأرض ألوانا من اللهب
ويضحى البدر دائرةً مهشمة رمادية
من القصدير ميتةً وملقاة على بيداء
فقد جفّت عيون الناس ، أضحت نقطة سوداء
وتذوى أذرعُ الأشجار ، تلقى حملها للأرض
وتدفنه كمجهضة تُكفّنُ عارهَا فى الطين

ويمشى القحطُ فى الأسواقِ ، يجبى جزيةالأنفاس
من الأطفال والمرضى
حقيبته بلا قاعٍ ، فلا تُملأ إذ تعطى
ورغبته بلا رِىٍّ ، فلا تسكت أن تسأل
وخلفَ القحطِ ، يمشى تحت ظلِّ البيرق المُسْدلْ
جنودُ القحْطِ ، جيش الشرِّ والنقمة
خلائقهم مشوهةٌ ،كَأَنَّ الذيلَ فوق الرأس
يقود خطاهمو إبليس وهو وزيُر مُلْكِ القحْط
وليس القتل والتدجيلُ والسَّرقُ
وليس خيانةُ الأصحاب والمَلَقُ
وليس البطشُ والعدوانُ والخَرَقُ
سوى بعض رعايا القحْطِ ، جند وزيره إبليس
تعالى الله ، قد يأنفُ أن ينظر فى مرآتنا ذاته
فيصرف وجهه عنّا ،
فكيف إذن نُصفّى قلْبنَا المُعتمْ
ليستقبل وجه الله ، يستجلى جمالاته
نُصلِّى ، نقرأ القرآن ،
نقصد بيته ، ونصوم فى رمضانْ
نعمْ ،
لكنَّ هذى أول الخطوات نحو الله
خطى تصْنعها الأبدان

وربّى قصدُه للقلب
ولا يرضى بغير الحبّ
تأمل ، إن عشقتَ ألسْتَ تبغى أن تكون شبيه محبوبِكْ
فهذا حبنا لله
أليس الله نور الكون !
فكن نورًا كمثل الله
ليستجلى على مرآتنا حسْنه

وحين يقف الحلاج بين يدىْ جلّاديه من قضاة عصره ـ الذين باعوا ضمائرهم للسلطان وأعمتهم الغواية عن رؤية الحق ومعاينته فأصدروا حكمهم من قبل أن تبدأ المحاكمة ـ يهدر صوت الحلاج فى مسرحية صلاح عبد الصبور مُلوحًا فى وجه هؤلاء الذين يحاكمونه بأنهم ليسوا قضاته ، ولذا فلن يدافع عن نفسه ضدّ اتهامه بإفساد صعاليك العامة .

يقول الحلاج :

أنا رجلٌ من غمارِ الموالى ، فقير الأرومة والمنْبتِ
فلا حسبى ينتمى للسمّاءِ ، ولا رفعتْنى لها ثروتى
ولست كآلافِ مَنْ يولدون بآلاف أيامِ هذا الوجود
لأن فقيّرا بذات مساءٍ سعى نحو حضنِ فقيرة
وأطفأ فيه مرارةَ أيامه القاسية
نموت كآلاف من يكبرونَ ، حين يقتاتون خُبزَ

الشموسْ
ويُسقونَ ماءَ المطرْ
وتلقا همو صبيـةً يافعين حـزانى على الطـُرقاتِ
الحزينة
فتعجب كيف نموْا واستطالوا وشبت خُطاهمْ
وهذى الحياةُ ضنينةْ
تسكّعـت فى طـُرقاتِ الحيـاةِ ، دخلـت سراديبهـا
المُوحشاتْ
حجبت بكفى لهيب الظهيرة فى الفلوات
وأشعلت عينى ، دليلى ، أنيسى فى الظلمات
وذوّبت عقلى ، وزيت المصابيح ، شمس النهار
على صفحات الكتب
لهثت وراء العلوم سنين ، ككلب يشم روائح صيد
فيتبعهـا ، ثـم يحتـال حتى ينـال سبيـلا إليهـا
فيركض ، ينقض
فلـم يسعد العلـم قلبى،بـل زادنى حيرة واجفـة
بكيت لها وارتجفت
وأحسسـت أنـى وحيد ضئيل كقطرة طـل، كحبة
رمل
ومنكسر تعس ، خائف مرتعد
فعلمىَ ما قادنى قط للمعرفة

وهبنى عرفت تضاريس هذا الوجود
مدائنه ، وقراه ووديانه ، وذراه
وتاريخ أملاكه الأقدمين
وآثار أملاكه المحدثين
فكيف بعرفان سر الوجود ، ومقصده ، مبتدا أمره، منتهاه
لكى يرفَعِ الخوفَ عنّىَ،خوْفَ المنونِ، وخوْفَ الحياةِ، وخْوفَ القَدرْ
لكى أَطمئن .
سألت الشيوخَ ، فقيل :
تقَرَّبْ إلى الله ، صلِّ ليرفعَ عنك الضلالَ ، صلِّ لتسعدْ
وكنت نسيتُ الصلاة ، فصلَّيْتُ لله ربِّ المنونِ ، وربِّ الحياة ،وربِّ القَدرْ
وكان هواءُ المخافة يَصْفِرُ فى أعظمى ويئزّ كريحِ الفَلا
وأنا ساجدٌ راكعٌ أتعبدْ
فأدركتُ أنىَ أعبدُ خوفىَ لا الله
كنت به مشركًا لا موحِّد
وكان إلهىَ خوفى
وصليتُ أطمعُ فى جنته

ليختالَ فى مُقلتىَّ خيالُ القصورِ ذوات القبابْ
أسمع وسوسة الَحلْىِ ، همسَ حرير الثيابْ
وأحسسْتُ أنى أبيع صلاتى إلى الله
فلو أُتقنت صَنعة الصلوات لزادَ الثمن
وكنت به مشركًا لا مُوحدْ
وكان إلهى الطمع
وجير قلبى الطمع
تُرى ، قُدِّر الشركُ للكائنات
وإلا فكيف أصلى له وحده
وأُخلى فؤادىَ عما عداه
لكى أَنزع الخوْفَ عن خاطرىِ لكى أطمئن
لكى أطمئن

فى هذه المونولوجات الطويلة على لسان الحلاج ، يتضح مدى استيعاب صلاح عبد الصبور لأدقّ أسرار التجربة الصوفية ، عند كبار العشاق والمحبّين ، من نفى للقدرة على المعرفة بواسطة العقل ، فالقلب هو المدخل والطريق ، ورفضٍ لفكرة أن تكون العبادة قائمة على مجرد الخوف أو الطمع ، حتى يكون أساسها المحبة والتوجه الخالص ، والذوبان والفناء فى المعشوق ، عندئذ ينتزع الخوف من المحب وتسكنه الطمأنينة ويتحرر من الرغائب والشهوات . ويستمر صوت « الحلاج » يفيض بالتحدى ويبتل بالمزيد من الشجون ، ويندْىَ بلغة الإفضاء ومكاشفة الأسرار :

كما يلتقى الشوقَ الصحارى العطاشِ ، بشوقِ
السحابِ السخىّ
كذلك كان لقائى بشيخى
أبى العاص عمرو بن أحمد ، قدَّسَ تُرْبتَه ربُّه
وجمَّعنا الحبُ ، كنت أحب السؤال ، وكان يُحب
النّوال
ويُعطِى ، فيبتلُّ صخرُ الفؤاد
ويُعطى ، فيخضر غصْنى
ويعطى ، فيُزهر نُطقى وظنّى
ويخلعُ عنى ثيابى ، ويُلبسنى خِرْقةَ العارفينْ
يقولُ هو الحب ، سر النجاةِ ، تعشَّق تفز
وتْفنَى بذاتِ حبيبك ، تصبحُ أَنتَ المصُلّى ، وأنتَ
الصلاة وأنت الديانةُ والربّ والمسجدُ
تعشَّقتُ حتى عشقتُ
تخيلتُ حتى رأيت
رأيت حبيبى ، وأتحفنى بكمالِ الجمال، جمال
الكمالْ
فأتحفته بكمال المحبة
وأفنيتُ نفْسىَ فيه

* * *

هذه السطور العامرة بنفحات الوجد وحرارة المعانة وفرح المعاينة والانكشاف هى دليل على امتداد خيوط التجربة الصوفية فى العشق الإلهى حتى يومنا هذا ، وكيف أن التألق فى التعبير عنها رهن بتوافر الصدق الشعورى الذى يتوهج من خلال قيم التعبير ، لتكتمل لهذه التجربة أبعادها فى الحس والتذوق وآثارها فى القلب والوجدان .

ولسوف تستمر هذه الخيوط والروافد ، مستمرة وممتدة ، فى رحلة الإنسان مع الكون ، ما بقى هذا الإنسان ، وما استمر انخلاعه وانخطافه نحو المجهول ، واحتضانه لطمأنينة الإيمان واليقين ، وتوجهه بالمحبة الكاشفة التى تنفض عنه الخوف وتملأ زوايا نفسه بالخشوع ، وتفجر هذا الشعر الأصيل النبيل ، المتوهج بعطاء الرحلة ، المثقل بمخاطر الترحال .

فمادام المحبوب هو الحق ، فإن العارف يظل دائم المشاهدة له وكلما ازداد مشاهدة زاد هياما ووجدا فالاشتياق يهيج باللقاء ، ويُظمئه الوصال ، وتشعله المعاينة ، وكلما اجتمع العاشق بمحبوبه أدرك أنه لا يشبع من مشاهدته ولا يروى ظمأه منه ، فكلما نظر إليه زاد وجدًا به وشوقاً مع حضوره معه .

ومن عجب أنى أحنُّ إليهمو
وأسأل شوقًا عنهمو وهمو معى
وتبكيهمو عينى وهم فى سوادها
وتشتاقهم نفسى وهم بين أضلعى

# تعاظمنى ذنبى

*للإمام الشافعى*

« تعاظمنى ذنبى ، فلما قرنْته
بعفْوك ربّى ، كان عفْوكَ أعْظمَا
ومازلْتَ ذا عفوٍ عن الذَّنْبِ ، لم تَزلْ
تجودُ وتعفو منّةً وتكرما »

« هو الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس ، يتصل نسبه بنسب الرسول الكريم ، ولد بغزة ، ثم حمل إلى مكة وهو ابن سنتين ، «وحُببَ إليه العلم منذ صباه فجالس العلماء وأخذ عنهم ، ثم وفد على الإمام مالك فى المدينة وحفظ الموطّأ ، ثم ارتحل إلى اليمن فالعراق ينشر علم الحديث وفقه السنة ويستخرج الأحكام ثم جاء إلى مصر سنة مائة وتسع وتسعين هجرية، وصنّف فيها مذهبه وألف فى علم الأصول ، واعترف له الناس بالإمامة وأصبح أحد الأئمة الأربعة المجتهدين . وتوفى بمصر سنة مائتين وأربع هجرية عن أربع وخمسين سنة » .



يقول الإمام الشافعى :

إليــكَ إلــه الخلــق أرفــعُ رغبتــى
وإن كنــتُ يا ذا المن والجودِ مجرمــا

ولما قســا قلبــى وضَاقــتْ مــذاهبــى
جعلــْتُ الــرَّجــا منــى لعفــْوِكَ سُلما

تعــاَظَمنـــى ذنبــى فلما قــَرنتــُه
بعفــوكَ ربــِّى كــان عفــُوكَ أَعْظَمَا

ومازلــْتَ ذا عْفوٍ عــن الَّذنــبِ لم تَزلْ
تجوُّد وتعفــو منـــّةً وتكــرمـــا

ولــولاك مــا يقْــوى بإبليــس عــابـدٌ
وكيــف وقــد أغــْوى صفيــَّكَ آدمــا

فــإن تعــفُ عنى تعــفُ عــن متمــرد
ظلـــوم غشــُوم لا يـــزايــلُ مـــأْتماَ

وإن تنتقــمْ منـــِّى فَلســْتُ بـــآيــسٍ
ولو أدخلــتْ نفسى بِجــُرمِى جَهنَّما

فجــرمى عظيــمٌ من قــديمٍ وحــادثٍ
وعفــْوُك يــأتــِى العبــدَ أعلَى وأجْسَما

تعــاظمنى ذنبــى ، فأقبلــت خاشعـًا
ولــولا الرضــا مــا كنت يــاربّ منعما

حـوالى فضـلُ الله مـن كـلِّ جـانـب

ونـورٌ مــن الـرحمن يُفترشُ السَّما

وفى القلـب إشراقٌ المُحـب بـوَصْلـهِ

إذا قـارب البشرى وجازَ إلى الحمـى

حــوالى إينـــاسٌ مــــن الله وحــْدَهُ

يُطـالعنـى فى ظُلمِـة القلـْبِ أنجُما

أصـون ودادى أن يـدنّسـهِ الهوى

وأحفــــظُ عهــــدَ الحبِّ أن يتثلَّما

ففى يقْظتـى شوقٌ وفى غَفْوتـى مُنىً

تـلاحــق خَطْوى نشــوةً وتـرنّما

ومن يعتصـم بالله يسلمْ مـن الورى

ومـن يـرجُـهُ هيهــات أن يتنـدَّمـا

إليـك إلــه الخلـقِ ، أرفـُـع رغْبتـــى

وإن كنتُ ياذا المنِّ والـوجودِ مجرما

# هــوانا حجــازى

*لأبى حمزة الخراسانى*

أراك وبــى مــن هيبتــى لــك وحشــةٌ
فتُؤنسنــى باللطـفِ منك وبــالعطفِ
وتُحيــى مُحبــا أنــت فى الحب حتفــه
ومن عجــبٍ كونُ الحياة مــع الحتْفِ

« هو أبو حمزة الخراسانى من كبــار أعلام القرن الثالث الهجرى ، أقام بنيسـابور وصاحب الجنيـد والخراز وأبا تراب ، وذاعت له شـهرة واسـعة بفضل علمه وورعه وتقاه ، توفى سنة مائتين وتسـعين هجرية ، وله قصائد تفيـض بصدق العاطفة الدينيــة وسُموّ الحب الإلهى ، من بينها هذه المقطوعة التى أنشدها فى معنى الشهود والرضا بالحبيب » .



يقول أبو حمزة الخراسانى :

أهـابُك أن أُبـدى إليـك الذى أُخفـى
وسرِّىَ يبـدى مـا يقــولُ لـه طـرْفى
نهانى حيـائى منك أن أكتـُم الهوى
وأغْـنَيْـتَنِى بالفهم منك عن الكشفِ
تلطّفتَ فى أمـرى فأبـديَت شـاهدى
إلى غائبـى واللُطفُ يـدركُ باللطـفِ
تـراءيـتَ لى بـالغيـبِ حتـى كـأنما
تُبشّرنـى بـالغيــبِ أنـك فى الكـفِّ
أراك وبـى مــن هيبْتــى لـك وحشـةٌ
فتؤنسنــى باللُّطف منك وبـالعطفِ
وتُحيـى مُحبـاً أنـت فى الحبّ حتفـه
ومن عجـبٍ كونُ الحياة مـع الحتْفِ
فيا شـوقُ رفْقاً بـالذىً أنـت مُشعلٌ
فلـوعتُك الحرّى تجلُّ عـن الوصـفِ
ويـا قلــبُ هـذا مــوعــد لمتيـّمٍ
تفيض دموع العين منـهُ ، ولا تكفى
ويا نفـسُ هبت مـن رياض أحبتـى
نسائم جادت حُفَّلاً مـن شذا العرفِ

تـُراوحنـــا ريـّا الصَّبـــا فى هُبـوبها

فـأنشـــقُ منهـا مــا يُقبّلـــه طـرفى

هـوانــا حجـازىٌ ونجـدٌ هــى المنــى

وإصباحُنا المأمـول يَخفى ولا يُخفى

مُعنــّى ومــا بين الأضـــالـع ســورةٌ

غـوائلهــا تــرتــج فى هــزة الــرجـفِ

ومــاضٍ لما أَسْعــى إليـــه ، كـأننــى

أسيرُ على ظلِّى وأسعـــى إلى حتفـــى

فلـــو أبصرتْنــى أعينٌ مستهـــامـــةٌ

لفاضت مـآقيها دمًا ساخـنَ الوكْفِ

وكيف أهابُ الزَّحفَ أو أرهبُ السُّرى

إذا كان مـن أَهواه مولاىَ فى الـزَّحْفِ

أمــولاى صبرنــى على ما أصــابنــى

فأنـت الذى تكفى وأنت الـذى تُعفى

ولا تجعلـنْ حبــلَ العــذاب مُخلــدًا

ولا كالـذى عذّبتَ قارون بـالخسْفِ

وهـــا أنـــا أخفــى الـدمــع والسر بيّنٌ

بوجهى، وتأبى المقْلتانِ سوى الذَّرفِ

يُبين لســانـــى عــن فـــؤادى وربَّما

أسر لسانــى ما يبــوحُ به طـرفى [1]

(١) هذا البيت والأبيات الثلاثـة السابقة له تروى ـ مع اختلاف فى السياق ـــ للشاعر العباس بن الأحنف .



# غريب الدار

*للبرعى*

« إلهى أقلْنى عثْرتى ، وتولَّنى
بعفوٍ ، فإن النائبات لها عُنفُ
خلعتُ عذارى ثم جئتك عامداً
بعذرى ، فإن لم تعفُ عنّى، فمن يعفو »

« عاش الإمام عبد الرحيم البرعى فى القرن الخامس الهجرى ، ويقال إنه أول من توله فى حب الرسول الكريم ، وشعره يدل على صدق العاطفة فى الحب ، مع سهولة ورقة فى التعبير .

والبرعى يمنى الأصل ، حجَّ عدة مرات ، وتوفى فى الطريق من مكة إلى المدينة ودفن بوادى البرعى ـ وله ديوان مجموع مطبوع يضم أشعاره فى الحب الإلهى والمدائح النبوية » .



يقول البرعى :

عسـى من خفـيِّ اللطـف سبحـانَهُ لُطـفُ
بعطْفـة بـرٍّ ، فـالكـريـم لـه عطـفُ
عسـى مـن لطيـف الصُّنـع نَظـرةُ رحمةٍ
إلى مـن جفـاهُ الأهـل والصحـبُ والإلـفُ
عسـى فـرجٌ يـأتـى بـه الله عـاجـلاً
يُسرُّ بـه الملهـوفُ إذ غمـّه اللهـفُ
عسـى لغـريـب الـدار تـدبير رأفـةٍ
وبـرٌّ مـن البـارى إذا العيـش لم يصـفُ
عسـى نفحـةٌ فـرديـةٌ صمـديـةٌ
بها تنقضـى الحاجـات والشمـل يلتـفُ
فـإنـىَ والشكـوى إلى الله ، كـالـذى
رمـى نفْسـه فى لجةٍ مـوجُهـا يطفـو
فمـن محن الأيـام قلبـى معـذّبٌ
أَلَمَّ بـروحـى قبـل حتْـفِ الفنـَا حتْـفُ
وإنـى لأرضـى مـا قضـى الله لى ولـو
عَبـدْتُ على حـرفٍ لأزوى بـىَ الحرْفُ
ولـم أبـْن حُسـنَ الظـنِّ فى سيـدى على
شَفـا جـُرفٍ هـارٍ فينهـار بـى الجرفُ

ولكــن دعــوت الله يكشــفُ كــربتــى

فما كــربــة إلا ومنــه لها كشــفُ

فكم بُسطــت كـفّ بســوء تــريــدنى

فقـــال لها الكـــاف ألا غُلــب الكــفُ

وكـم هــم صرفِ الــدهــر يصرفُ نــابـه

على ، فجـــاء الغـــوثُ وانصرف الصرفُ

ولم أعتصـــــمْ بــــالله إلا ومــــد لى

مــن البِرِّ ظــلا فى رضـــاه لـــه وكـْـفُ

وإنــى لمستغـــن بفقـــرى وفــــاقتـــى

إليــه ، ومُستقـــوٍ وإن كــان بــى ضعـْفُ

وفى الغيـــب للعبــد الضعيـــف لطــائفٌ

بها جفـّت الأقـــلام وانطـوت الصحــفُ

فكـــم راح روح الله فى خلقـــــه ، وكـــمْ

غـدا قبــل أن يــرتـــدَّ للنــاظــر الطــرفُ

بقـــدرة مــن شـــدّ العـرى وبنـــى السما

طـــرائق فــوق الأرض فهـــى لها سقــفٌ

ومن نصــب الكرسىّ والعــرش ، واستوى

على العـرش والأمـلاك مــن حـولـه حفـّوا

ومــــن بســــط الأرضين فهـــى بلطفـــه

لحىٍّ بنـــى الـــدنيـــا وميّتهــم ظــرْفُ

وألقــى الجبــال الشــمَّ فيهــا رواسيــًا
فليــس لها مــن قبــلِ مــوعــدهــا نسْـفُ
وألبسـهــا مـن سنــدس النَّبـتِ بهجــةَ
مــن القطــر مــا صِنْـفٌ يشــابهه صِنْـفُ
وسخَّــر مــن نشر السحــاب لــواقحــًا
إذا انتشرت درَّت سحـــائبهـا الــوطــفُ
وأنشــأ مـــن ألفــافهــا كـــلَّ جنــة
بها الأبُّ والــريحانُ والحَب والعصــْفُ
ويعلــم مسرى كــلِّ ســارٍ وســـارب
ومــا أعلنــوه مـن خطــايــا ومــا أخفــوا
ويــدرى دبيــب النمــل فى الليـل إن سَعـتْ
وإن وقفـت مـا أمكـن السعـى والــوقـفُ
ووزن جبـــال كـــم مثـــاقيـــل ذرةٍ
وكيـــْل بحــارٍ لا يغيِّضهـــا نـــزْفُ
وكـمْ فى غـــريـب الملــك والملكوت مــن
عجــائب لا يُحصــى لأيسرهـــا وصـْفُ
فسبحـــانــه إن هــمَّ وهـــمٌّ لـــذاتـِـه
بكـــف وتكييـــفٍ يُلجِّمـــهُ الكــفُ
ولم تُحِط الســـتُّ الجهــاتُ بـــذاتـــه
فــأيــن يكــون الأيْنُ والقَبــْلُ والخلْـفُ

إلهى أقلْنى عثْرتى وتولَّنى
بعفو فإنَّ النائباتِ لها عنْفُ
خلعتُ عذارى ثم جئتك عامدًا
بعذرى ، فإن لم تَعفُ عنى فمن يعفو
وأنت غياثى عند كلِّ ملمةٍ
وكهفى إذا لم لى يبق بين الورى كهف
فكم صاحب رافقته ليكون لى
رفيقًا ، فأضحى وهو بادى الجفا خُلفُ
وما شئت من قومٍ أعدُّ صديقهم
إذا استنصرٍوا زالوا وإن وزنوا خفّوا
طباع ذئابٍ فى ثيابٍ جميلةٍ
بصائرهم عُميٌ ، قلوبُهمو غُلْفُ
تلوحُ عليهم للنفاق دلائلٌ
وبالحكِّ يبدو الزيف والذَهَبُ الصّرفُ
فحُلْ سيدى ما عشتُ بينى وبينهم
بحوْلك حتى يخضع الفرد والألْفُ
لأنك معروفٌ ومنك عوارفٌ
إذا استُنكر المعروفُ وانقطع العُرْفُ
وأثبت بنور العلم والحلم منك لى
سعادة حظ ما لمثبتها حذْفُ

وأيـّد بحــرف الكـاف والنــون حُجّتـى
ليسبــق لى مــن كـلِّ صــالحةٍ حــرفُ
وأكـــرْم لأجلى مـــن يلينـــى وأعطنـــا
مـن النـــار أمْنـًا يــوم كـُلٌّ لــه ضعـفُ
وصـــــلّ على روح الحبيـــب محمـــــدٍ
صــلاةً عــلاهـا النــور وانتشر العـَرْفُ



# نــار ليــلى

*للشّهرزورى*

نـــارنـــا هـــذه ، تضـــىء لمن يســـْـــ
رى بليـــــلٍ ، لكنّهـــــا لا تنيـــــلُ
هــذه حـــالُنـــا ، ومـــا وصـــل العلـْـــ
مُ إلينـــــا ، وكــــــلُّ حـــــالٍ تحولُ

« هو عبد الله بن القاسم الشهـرزورى ـ نسبه إلى مدينة شهرزور فى كردستان ، شاعر عالم وأديب فقيه ومحدث بارع حكيم . توفى سنة خمسمائة وإحدى عشرة هجـرية ، وهـو قليل الحظ مـن الشهرة بين الأدباء والمتأدبين وإن كان عظيم القدر بين عشاق المتصوفة فى زمانه .

وهو فى قصيدته هذه ينسج على منـوال غير مألوف عندما يستهلها بـوصـف ابتداء الـرحلـة ، رحلـة البحـث عـن الحقيقة المطلقـة ، عـن معشوقتـه.. ليلاه ، ثـم يصف أشـواق الرحلـة وما لاقـاه من معـاناة ومكـابدة ، وصـولاً إلى النار التـى كـان يظنها ستنيـل ، حيث الظفـر بالوصال ولقاء المحبوب » .



يقول الشهرزورى :

لمعتْ نارهم وقد عسعسَ الليـ
ـلُ ، وملَّ الحادى ، وحار الدليلُ

فتأملتها وفكرى من البيـ
ـن عليلٌ ولحْظُ عينى كليلُ

وفؤادى ذاك الفؤادُ المعنَّى
وغرامى ذاكَ الغرامُ الدخيلُ

ثم قَبلتُها وقلتُ لصحْبى
هذه النارُ ليلى فميلوا

فَرموا نحْوهَا لحاظًا صحيحا
تٍ ، فعادت خواسئًا وهى حُول

ثم مالوا إلى الملام وقالوا
خُلَّبٌ ما رأيْتَ أم تخييلُ

فتجنبتهم ومِلْتُ إليها
والهوى مركبى وشوقى الزميلُ

ومعى صاحبٌ أتى يقتفى الآ
ثارَ والحبُّ شأنهُ التطفيلُ

فَدنونا من الطلولِ ، فَحالتْ
زفراتٌ من دونها وعويلُ

قلتُ : من بالديار ؟ قالت : جريحٌ
وأسير مُكَبَّلٌ ، وقتيلُ

مالـذى جئْتَ تبتغى ؟ قلـت : ضيفٌ
جـاء يبغـى القرى ، فـأيـن النـزُولُ
فـأشـارتْ بـالرّحـب دونـك فاعقـرْ
هـا فما عنْدنـا لضيـْف رحيـلُ
مـن أتـانـاألقـى عصـا السيْر عنـه
قلـت : مـن لى بذا ؟ وكيـف السبيـلُ
فحططْنـا إلى منـازل قـوم
صرعتهـم قَبـْلَ المذاق الشَّمـولُ
ومـن القـوم مـن يشيرُ إلى وجـْ
ـد تبقَّـى عليـه منـهُ القليـلُ
قلـت : أهـل الهوى سـلامٌ عليكم
لى فـؤادٌ عنكـم بكـم مشغـولُ
لم يـَزلْ حـافـز مـن الشـوق يحدو
بـى إليكـم والحادثـاتُ تحولُ
جئـتُ كـى أصطلى ، فهـل لى إلى نـا
ركمـو هـذه ، الغـداةَ سبيـلُ
فـأجـابـت شـواهـد الحال عنهـم
كـلُّ حـدٍّ مـنْ دونها مفلـولُ
نـارُنـا هـذه ، تضُـىء لمن يسـ
ـرى بليـلٍ ، لكنهـا لا تُنيـلُ
هـذه حـالُنـا ، ومـا وصـلُ العلـ
ـم إلينـا ، وكـلُّ حـال تحولُ

# تــه دلالاً

## لابن الفارض

كــلُّ مـــن فى حماكَ يهواكَ ، لكـــن
أنـــا وحــدى بكـــل مــن فى حماكـــا
يُحشر العـــاشقـــون تحت لـــوائى
وجميـــع الملاحِ تحْتَ لـــــواكـــا

« هو إمام المحبين وسلطان العاشقين أبــو حفص عمر بن الفارض ولد فى القــاهرة سنة خمسمائة وســت وسبعين هجرية لأسرة شــامية الأصل تنتسب إلى مــدينة حماة ،ونشأ نشأة دينية فى كنــف والده ابن الفارض الذى كان أحد كبار علماء الدين فى زمانه ، وأتيح له أن يدرس الفقــه والحديــث وأن يتردد على مجالــس العلم ، وأن يــدرس طــريــق الصوفية متنقــلاً فى سياحته الروحيــة بين وادى المستضعفين فى جبل المقطم وأوديــة مكة التى قضـــى بها خمسة عشر عــاما عاد بعــدها إلى مصر مفعمًا بالأشواق والوجد والهيام حيــث كانت وفاته سنة ستمائة واثنتين وثلاثين هجرية .

وقد اشتهر شعره لامتــلائه بالمعانى الصوفية الرمــزية ، ولقوة ما تميز به من أداء وتعبير ، وعاطفة حارة متوهجة ، وخيال محلق » .



يقول ابن الفارض :

تـــه دلالاً فـــأنــت أهـــلٌ لــذاكــا
وتَحكّمْ فـــالحســن قــد أعطـــاكــا
ولــك الأمرُ فــاقــضِ مــا أنتَ قــاضٍ
فعليَّ الجمالُ قـــــد ولاَّكـــــا
وتـــلافى إن كـــان فيـــه ائتـــلافى
بـكَ ، عجـِّل بـه جُعلـتُ فـداكـا
وبما شئـــت فى هـــواكَ اختبرنـــى
فــاختبــارى مـا كان فيـه رضــاكـا
فعلى كــلِّ حـــالـــةٍ أنــت منـــى
بـــى أولى ، إذْ لم أكـــنْ لـــولاكـا
وكفـــانـــى عـــزًّا بحبـــك ذُلّى
وخضـوعـى ، ولسـت مـن أكفـاكـا
وإذا مــا إليـــك بــالــوصـــل عـزَّتْ
نسبتـــى عـــزَّةً وصـــحَّ ولاكـــا
فــاتهامــى بالحب حسْبـى ، وإنــى
بين قـــومـى أُعـــدُّ مـــن قتْلاكـــا
لـــك فى الحيِّ هـــالـــكٌ بـك حـــىٌّ
فى سبيـــل الهوى استلـــذَّ الهلاكـــا
عبـــد رقٍّ مـــارقَّ يـــومـــًا لعتـــق
لـــو تخليـــتَ عنــه مـــا خـــلاَّكـــا

بجمالٍ حجبْتـــــهُ ، بِجــــــلالٍ
هــامَ واستعــذَب العـذابَ هنــاكـا
وإذا مـا أمــنُ الـرجــا منـه أدنــا
كَ ، فَعنــهُ خــوفُ الحِجى أقصــاكـا
فبــإقــــدام رغبــةٍ حين يغشـــا
كَ ، بــإحجـام رهْبــةٍ يخشــاكــا
ذاب قلبـــى فـــأذَنْ لــــه يتمنـــاً
كَ ، وفيــــه بقيــةٌ لـــرجـــاكـــا
أومـــر الغمْـضَ أن يمــُرّ بِجفْنـــى
فكـــأنّــى بـــه مُطيعـًا عصــاكــا
فعســى فى المنـام يعرضُ لِى الـوهـــ
ــمُ ، فيــوُحـــى سرًا إلىّ سُراكــا
وإذا لم تُنعــش بـــروح التمنّــى
رمقــى ، واقتضـــى فنــائى بقــاكــا
وحَمت سُنــةُ الهوى سِنــةَ الغَمــْـ
ـضِ جفــونــى ، وحرَّمــت لُقْيــاَكــا
أَبــْقِ لى مقْلــةً لعلِّـــىَ يــومــًا
قبـــل مــوتـــى أرى بها مــن رآكـــا
أيـن منّى مــا رمتُ هيْهــاتَ ، بل أيـــ
ـنَ لعينــى بــالجفــنِ لَثْــمُ ثــراكــا

فَبشيرى لــو جاء منـْكَ بعطـفٍ
ووجـودى فى قبضتـى ، قلتُ هـاكـا
قـد كفـى ما أرى دمـا مـن جُفـونٍ
بـك قرْحـى ، فهل جـرى مـا كفاكـا
فـأجِـر مـن قـِلاكَ فيـك مُعنـىً
قبـل أن يعـرفُ الهوى يهواكـا
هبـْكَ أنَّ الـلاَّحـى نهاهُ بِجهـلٍ
عنـْكَ قـُلْ لى عن وصلـه مـنْ نهاكَا
وإلى عِشْقـِكَ الجمالُ دعـاهُ
فـإلى هجـْره تـُرى مـن دعـاكـا
أتـُرى مـَنْ أَفْتَـاكَ بـالصـدِّ عنـىِّ
ولغيرى بـالـودِّ مـَنْ أفتـاكـا
بـانكسـارى بـِذلَّتـى بخضـوعـى
بـافتقـارى بفـاقتـى بِغنـاكـا
لا تكلنـى إلى قـوى جَلـَدٍ خـا
نَ ، فـإنـى أصبحتُ مـن ضُعفـاكـا
كنـت تجفـو وكـان لى بعـضُ صبْرٍ
أَحْسَنَ اللهُ فى اصطبـارى عـزَاكـا
كـم صـدودًا عساكَ تـرحـمُ شكـوا
ى ، ولـو بـاستماع قـَولى عسـاكـا

شنــَّـع المُرجفـون عنــك بهجـــرى

وأشــاعـــوا أنـّــى سَلــوتُ هـــواكــا

مــا بــأحشــائهــم عشقـْـتُ فــأسلــو

عنك يــومًا ، دع يهجـروا ، حاشـــاكا

كيـــف أسلـــو ومقلتـــى كُلما لا

حَ بــــريــقٌ تلفَّتــــت لِلقـــاكــــا

إن تنَسمـــتُ تحت ضـــوءِ لثـــام

أوتنسمـْـتُ الـــريــحَ مـــَّنْ أنْبــاكـــا

طِبـْتُ نفْسًـا إذْ لاح صُبحُ ثنــايــا

كَ لعيْنــى ، وفـــاح طيـبُ شـــذاكــا

كـــلّ مــــن فى حِماكَ يهواكَ ، لكـــن

أنـــا وحـدى بكـــلٍّ مـن فى حماكـــا

فيـــك معنـــىً حـَـلاكَ فى عيْنِ عقلى

وبــــه نــاظـــرى مُعنـــَّى حـِلاكــــا

فُقـْتَ أهل الجمالِ حُسْنـًا وحُسْنـــى

فبهـــمْ فــــاقـــةٌ إلى معْنـــاكــــا

يُحشر العـــاشقــون تحت لـــوائى

وجميـــع الملاحِ تَحْتَ لـــــواكــــا

مــا ثنــانــى عنـْـكَ الضَّنــى فبماذا

يـــا مليـح الـــدَّلالِ عنـــّى ثنــاكـــا

لــك قــربٌ منّــى ببعــدك عنـّـى
وحنــو وجــدتــهُ فى جَفــاكــا
علّـم الشــوق مقلتــى سهـر اللَّيْـ
ــلِ ، فصـارتْ من غير نـومٍ تـراكـا
حبــذّا ليلـــةٌ بها صـــدْتُ أسرا
كَ ، وكـــان السُهــادُ لى أشراكــا
نــاب بــدر التمام طيــْفَ مُحيــاً
كَ لِطــرفْى ، بيقظتــى إذ حكــاكــا
فتراءيـــــــت فى ســــــواكَ لعينٍ
بــك قــرَّتْ ومــا رأيــت ســواكــا
وكـــذاك الخليـــلُ قلّــب قبلى
طــرْفــه حين راقــبَ الأفــلاكــا
فــالــدياجــى لنــا بــك الآن غـرٌ
حيــث أهــديــتَ لى هُدًى مــن ثنــاكــا
ومتــى غبْتَ ظــاهــرًا عــن عِيــانــى
أُلفــِه نحــوَ بــاطنــى ألفــاكــا
أهـــل بـْدرٍ ركــبٌ سريــْتَ بليــْلٍ
فيــه بـل ســار فى نهارٍ ضيــاكــا
واقتبـاسُ الأنــوار من ظــاهرى غيـْـ
ـــر عجيبٍ وبــاطنــى مــأواكــا

يعْبَق المسْكُ حيثما ذُكــرَ اسْمـى
منــذ نــاديْتَنــى أقَبــِّلُ فــاكــا
ويضـــوع الغبير فى كـــلِّ نــادٍ
وهـــو ذكــرٌ مُعبرٌ عـن شـــذاكـا
قـــال لى حســنُ كـلِّ شـــىءٍ تجلَّى
بــى تملى فقلتُ قصـــدى وراكـــا
لى حبيـــبٌ أراكَ فيـــه معنـــًى
غُـــرَّ غيرى وفيـــه مَعْنـــىً أراكـــا
إن تـــولَّى على النفـــوس تـــولَّى
أو تجلَّى يستعبـــدُ النُســـَّاكـــا
فيــه عـوَّضـتُ عـن هـُداى ضــلالاً
ورشــادى غيــًّا وسترى انهتــاكـــا
وحـــَّد القلـبُ حُبــَّه فـــالتفـاتـــى
لـــــك شِرْكٌ ولا أرى الإشراكـــــا
يــا أخـا العذْلِ فى مــن الحسْــن مثْلى
هــام وجـْدًا بـه عـدِمـْتُ أخـــاكـا
لـــو رأيــت الـــذى سبــانـى فيـــه
مـــن جمالٍ ولـــن تـراهُ سبـــاكـــا
ومتـــى لاح لى اغتفــرْتُ سُـهــادى
ولعينـــىَّ قلــتُ هـــذا بِـــذَاكا

# مريضة الأجفان

*لابن عربي*

بأبي طفلةٌ لعوبٌ تَهادى
من بناتِ الخدور بين الغواني
طلعت في العِيان شمسا ، فلما
أفلت أشرقت بأفق جناني

هو محيي الدين بن عربي ، الحاتمي الطائي الأندلسي . ولد بمرسية إحدى بلاد الأندلس سنة خمسمائة وستين هجرية ، وانتقل إلى إشبيلية في الثامنة من عمره ، فقرأ بها العلوم على مشاهير زمانه ثم سافر إلى مصر ودمشق وبغداد ، وجاور في مكة ، وأقام في بلاد الروم طلبًا للعلم والسياسة ، وتوفي بالشام عن ستة وسبعين عاماء ودفن في مسجد يحمل اسمه في سفح جبل قاسيون بعد حياة حافلة جلبت عليه الكثير من الأنصار والأعداء .

وقد ترك ابن عربي مؤلفات كثيرة أشهرها « الفتوحات المكية » الذي يعدُّ واحدًا من أمهات كتب التصوف الإسلامية ، وديوان شعره «ترجمان الأشواق » الذي يمتلئ بقصائد في الغزل يرمز بها إلى المعاني الروحية والدلالات الصوفية .



يقول ابن عربى :

مـرضـى مـن مـريضـةِ الأجفـانِ
علِّلانـى بـذكْـرِهـا ، علّـلانـى

هفـت الـوُرْق بـالريـاض ونـاحـتْ
شجْـوُ هـذا الحمامِ ممـا شجـانـى

بـأبـى طفلـةٌ لَعـوب تهادَى
مـن بنـات الخدورِ بينِ الغـوانـى

طلعـتْ فى العيـانِ شمسـًا ، فلما
أفلـتْ أشرقـتْ بـأفـقِ جَنـانـى

يـا طلـولاً بـرامـةٍ دارسـاتٍ
كـم رأتْ مـن كـواعـبٍ وحسـانِ

بـأبـى ثـم بـى غـزالٌ ربيـبٌ
يـرتعـى بين أضلعـى فى أمـانِ

مـا عليـه مـن نـارهـا فهـى نـور
هكـذا النـورُ مُخمِـدُ النيران

يـا خليلىَّ عـرجـا بعيـانـى
لأرى رسـْم دارهـا بعيـانـىِ

فـإذا مـا بلغتما الـدار حُطـا
وبها صـاحبـىَّ ، فَلتبكيـانـى

وقفا بى على الطلولِ قليلاً

نتباكى ، بل أَبْكِ مما دهانى

الهوى راشقى بغير سهامٍ

الهوى قاتلى بغير سنانِ

عرّفانى إذا بكيتُ لديْها

تُسعدانى على البُكا تُسعدانى

واذكرا لى حديث هندٍ ولبنى

وسليْمى وزينبٍ وعِنانِ

ثم زيدا من حاجر وزرود

خبرًا عن مراتع الغزلان

واندبانى بشعرِ قيسٍ وليلى

وبمىٍّ ، والمبتلَى غيلانِ

طال شوقى لطفلةٍ ذات نثرٍ

ونظامٍ ومنبرٍ وبَيانِ

من بناتِ الملوك من دار فُرسٍ

من أجلِّ البلاد من أصْبهانِ

هى بنتُ العراق بنتُ إمامى

وأنا ضدّها سليلُ يمانى

هل رأيتم يا سادتى أو سمعتم

أن ضدَّيْن قطُّ يجتمعانِ

لــو تــرانــا بـــرامــةٍ نتعــاطــى
أكـــؤُســـًا للهـــوى بغير بَنـــانِ
والهوى بيننـــاَ يســـوقُ حـــديثـــًا
طيبـــا مطـــربـــا بغير لســـانِ
لـــرأيْتـــم مـــا يـــذهـــبُ العقـــلُ فيـــه
يمـــــنٌ والعــــراقُ معتنقـــانِ
كــــذب الشـــاعـــر الـــذى قـــال قبلى
وبـــأحجـــارِ عقْلـــه قـــد رمـــانـــى :
« أيها المنكـــح الثـــريـــاًّ سُهيـــْلاً
عَمـــْرَكَ الله كيــــف يلتقيـــان
هـــى شـــاميـــةٌ إذا مـــا استهلـــّت
وسُهيـــلٌ إذا استهـــلَّ يمانـــى[1]





(١) هذان البيتان منسوبان للشاعر عمر بن أبى ربيعة .



# ربّة السّتر

*للإمام الصرصرى*

سيرى فأنوار أقمار المحامل إن
حار الأدلةُ فى البيْداء تهديكِ
فَتحتِ بالرشدِ عن عينىَّ بعد عمىً
وأسمعَ السرَّ من قلبى مناديكِ

« هو الإمام العالم جمال الدين أبو زكريا يحيى بن يوسف الصرصريّ العراقى ، كان ضريرًا ، ولكنه كان تقيا ورعا وأديبًا بارعًا وله ديوان شعرى كبير أكثره مدائح فى الرسول الكريم ، مات على أيدى التتار ـ عند سقوط بغداد ـ سنة ستمائة وست وخمسين هجرية » .



يقول الإمام الصرصرى :

ياربـّةَ الستر لا انجابت غواديـك
عـن جـوٍّ مغْنـاكِ أو يَخضر واديـك
وأنـت يا عـَذَباتِ البـانِ ، لا برحـتْ
تهيـجُ أشـواقنـا ألحانُ شـاديكِ
وماسَ من كلِّ غُصـنٍ منك من طربٍ
عِطـفٌ وتهْتِ دلالاً فى تهاديـكِ
ويـاميـاه الحمـى لازلْـتِ طيبـةً
يُروى بشربِ الزّلالِ العـذب صاديكِ
ويـا نسيم صبـا نجـدٍ لقـد عرفَـت
روحى بمسراكِ وَهْنـاً عرفَ مهـديكِ
ويـاليـالينـا لله عيـشُ هـوًى
مـع البـدور تقضـىَّ فى دآديـكِ
ويـا فـوارط أيـامـى بخيـْف منـى
لـو كان يُفـدى زمـانٌ كنـتُ أفديـكِ
ويـا رسـائلَ وجـدٍ لا أبـوحُ بها
إلى الأحبـةِ عنـدى مـن يـؤدّيـكِ
أُخفيـك عن عـُذَّلى صـونـًا وتكرمـةً
بـل المدامعُ والأنفـاس تُبـديـكِ

ويـا ركاب الحجـازِ القُودَ ، لانقبـتْ
مـن السّرى أبـدًا أخفـافُ أيـديكِ
ولا عـدلْتِ عـن النهـجِ القويـمِ ، ولا
مـالـت إلى غير أحبـابـى هـواديكِ
ونلْـتِ ما شئـتِ مـن وردٍ ومن كـلأٍ
ولا نبـا السمعُ عـن تغريـد حاديكِ
كمْ ذا التّمادى،ذرى التّعليلِ وابتدرى
إلى الحمـى ، فَعنـائى فى تماديـكِ
سيرى فـأنـوار أقمار المحـامـل إن
حـار الأدلـّةُ فى البيـداء تهديـكِ
ويـا قبـابَ حمى سَلْعٍ حـويـْت على
رقـيٍّ بما أسلفـت عنـدى أيـاديكِ
فَتحْتِ بالـرشدِ عن عينىَّ بعـد عمىً
وأسمـعَ السر مـن قلبـى مُنـاديكِ
حـقٌّ علىَّ أُوالى مـن بـه اعتلقـتْ
أسبـابـهُ وأُعـادى مـن يُعـاديكِ
إنـى وإن تكُ أضحـت عنـك نازحـةً
دارى لأرعـى بظَهْـرِ الغيـب واديـك
لازال سُكـانـكِ القُطـّانُ فى دعـةٍ
وفـاز رائحـكِ السـّارى وغـاديكِ

وأنت لا تجزعـى يا نفـسُ من بـدعٍ
مضلــةٍ وضيــاءُ الله هـــاديـــكِ
أجـــارَكِ الله لـــولا درعُ سُنتـــهِ
لكـان سـهـمُ الـهوى الفتّاك يـُرديـكِ



# وارحمتا للعاشقين

## للسهروردى

« لا ذنب للعشاق إن غلب الهوى
كتمانهم ، فنما الغرامُ ، فباحوا
سمحوا بأنفسهم وما بخلوا بها
لما دروا أن السماح رباحُ»

« هو شهاب الدين عمر السهروردى ، ولد فى سهرورد وقرأ كتب الدين والحكمة وأقام فى مراغة وبغداد وحلب ، حيث كان مقتله بأمر السلطان صلاح الدين بعد أن نسب البعض إليه فساد المعتقد ، ولتوهم صلاح الدين أن السهروردى يفتن ابنه بالكفر والخروج على الدين ـ وكان مقتله بقلعة حلب سنة ستمائة وخمس وستين هجرية ـ مع أنه كان من كبار المتصوفة فى زمانه ومن أفقه علماء عصره بأمور الدين والفلسفة والمنطق والحكمة ، ويسمى مذهبه الذى عرف به «حكمة الإشراق» .

ويروون أنه قال وهو يجود بأنفاسه الأخيرة :

قــل لأصحـــابٍ رأونـــى ميتـــا
فبكـــوْنـــى إذ رأَوْنـــى حـــَزنـــا
لا تظنـــونـــى بـــأنـــى ميـــتٌ
ليـــــس ذا الميـــّت والله أنـــــا
أنـــا عصفـــورٌ وهـــذا قَفصـــى
طـــرت عنـــــه فتحلَّى رَهَنـــــا
فـاخلعـوا الأنفس عـن أجسـادهـا
فترون الحقَّ حقـــــاًّ بيِّنـــــــا
لا تـــرعكـــُم سَكـــْرة الموت فما
هـــى إلا بـــانتقـــالٍ مـــن هنـــا

يقول السهروردى :

أبـــــدًا تحن إليكـــــم الأرواحُ
ووصـــالكـــم ريْحانُها والـــرَّاحُ
وقلـوبُ أهـلِ ودادكـــم تشتـاقكـم
وإلى بهاء جمالكـــم تـــرتـــاحُ [1]
وارحمتـــا للعـــاشقين تحمَّلـــوا
ثقـــل المحبـــة والهوى فضـّـاحُ
أهـل الهوى قسمان : قســم منهمـو
كتمـوا ، وقســمٌ بـالمحبـــة بـاحـوا
فـالبائحـون بِسرهم شربـوا الهوى
صِرْفـًا فهـزهموا الغـــرام فبـاحـوا
والكـاتمون لسرهـــم شربـوا الهوى
ممـــزوجـــةً فَحمتْهمـــو الأقـــداحُ
بـالسر إن بـاحـوا تبـاحُ دمـاؤهـم
وكـــذا دمـــاء البـــائحين تُبـــاحُ
وإذا همو كتمـــوا تحدَّث عنهمـــو
عنـــد الـــوشـاة المدمـــعُ السَّفـــاحُ

( ١ ) فى رواية أخرى للبيت : وإلى لذيذ لقائكم ترتاح .

وبـدت شـواهــدُللسَّقــام عليهمــو
فيهــا لمشكــلِ أمـرهــم إيضـــاحُ
خُفض الجَنـاحُ لكم ، وليـس عليكمو
للصــبِّ فى خفْضِ الجنــاح جُنـاحُ
فـإلى لقــاكـم نفســهُ مـرتــاحـةٌ
وإلى رضــاكــم طــرفــُه طماحُ
عودوا لنور الوَصل من غَسقِ الدُّجى
فـالهجـر ليـلٌ والــوصــال صَبـاحُ
صـافـاهمو فصفـوا لـه ، فقلـوبهم
فى نــورهـــا المشكــاةُ والمصبــاحُ
وتمتعـوا فـالـوقت طـاب بقـربكـم
راق الشراب وراقـــت الأقـــداحُ
يـا صـاح ليس على المحـب مـلامـةٌ
إن لاح فى أفــق الصبــاحِ صبــاحُ
لا ذنــب للعشــاق إن غلــب الهوى
كتمانهم ، فنما الغــرامُ ، فبـاحــوا
سمحــوا بـأنفسهم ومـا بخلـوا بها
لمَّا دروا أن السَّماحَ ربـــــــــاحُ
ودعــاهمو داعــى الحقــائق دعـوةً
فَغــدوْا بها مستــأنسين وراحــوا

ركبوا على سفُن الوفا ، ودموعهم
بحرٌ ، وشدّة شوقهم ملاّحُ
والله ما طلبوا الوقوف ببابهِ
حتى دعوا ، وأتاهمو المفتاحُ
لا يطربون لغير ذكر حبيبهم
أبدًا ، فكلُّ زمانهم أفراحُ
حضروا وقد غابت شواهدُ ذاتهم
فتهتكوا لما رأوهُ وصاحوا
أفناهمو عنهم وقد كُشفت لهم
حُجب البَقا فتلاشت الأرواح
فتشبهوا إن لم تكونوا مثلَهم
إنَّ التشبُّه بالكرامِ فَلاحُ

ويضيف الصوفية إلى قصيدة السهروردى أبياتًا أخرى كثيرة ، من بينها مقطوعةٌ نظمت على غرار القصيدة الأصلية ، وحملت طابعها فى التعبير وطريقتها فى بناء الصور الشعرية والدوران حول قاموسها المختار من الكلمات والإشارات :

أيامنا بلقائكم أفراحُ
وجميع أيام المِلاحِ ملاحُ
قل للمحب إذا تهتَّك فى الهوى
إن التهتُّك فى الغرام مُباحُ

واخلـــعْ عِـذَارك لا تُبَـــالِ بعـــاذلٍ
واطــربْ وغـنِّ فما عليــك جُنــاح
أهــل المحبـــة حين طـــاب شرابهم
بــاعـوا النفوس لِحبهــم وارتــاحــوا
شربوا كؤوس الحب فى حــان الصَّفا
فتمايلــــــت سكــــــرا بها الأرواحُ
بـــالانكســـار تحمّلـــوا فى حبـّـه
فبـــدا عليهــم مـــن رضـــاهُ سَماحُ
خلع الحبيـبُ عليهمو خلــعَ الرِّضــا
وأنـــالهم مـــن فضلـــه الفتـــَّاحُ
مــلأ الحبيــب قلــوبهم مـــن نــوره
فشـــذاهمو مـــن عطـــره فـــواحُ
تحيى الحبيـب بذكـرهم وبنــورهم
وتـــزول عنـــد لقـــاهمو الأتـــراح
كــلُّ القلـــوب لهم تحن تشـــّوقـــًا
وتُحبّهـــم ، وبحبِّهـــم تـــرتـــاحُ
فتشبهـــوا إن لم تكـونـــوا مثلهـــم
إن التشبـــُّه بـــالكـــرام فَـــلاحُ

# إلهــى يا سمــيع

*لأحمد البدوى*

« إلهى ثـــوب جسْمـــىَ دنَّستـــهُ
ذنـــوبٌ حِملُهـــا أبـــدًا ثقيـــلُ
إلهى جـــد بعفـــوك لى فـــإنـــى
على الأبـــواب منكسر ذليـــــلُ »

« هو أبو العباس أحمد البدوى القرشى ، كـان مولده بمدينة فاس بالمغـرب ، هاجر مـع والده وأهله إلى مكـة حيث تعلم القـرآن والعلوم الشرعية ، ثم حببت إليــه الخلوة والوحدة فاعتزل النــاس وظهرت عليه دلائل البركة والـولاية ، ثم هــاجر إلى العراق حيـث لقى من شيـوخها وعلمائهـا الترحيب ، ثـم جـاء إلى مصر فى عصر الظـاهر بيبرس الـذى استقبله أروع استقبال بعـد أن طبقت شهرته الآفاق لعلمـه وصلاحه وتقواه ونـزل فى مدينة طنطا حيـث كانت وفاتـه سنة ستمائة وخمس وسبعين هجرية زاهدًا متعففًا ورعًا ، وفقيهًا من فقهاء المذهب الشافعى وأعلامه » .



يقول أحمد البدوى :

إلهى أنت للإحسان أهلٌ
ومنك الجود والفضل الجزيلُ
إلهى بات قلبى فى هموم
وحالى لا يُسرُّ به خليلُ
إلهى تب وجُد وارحم عُبيْدًا
من الأوزار مدمعهُ يسيلُ
إلهى ثوب جسْمىَ دنستهُ
ذنوبٌ حملها أبدًا ثقيلُ
إلهى جُد بعفوك لى فإنى
على الأبواب منكسرٌ ذليلُ
إلهى حُفّنى باللطف يا منْ
له الغفرانُ والفيضُ الجزيلُ
إلهى خاننى جَلَدى وصبرى
وجاء الشيبُ واقترب الرحيلُ
إلهى داونى بدواء عفوٍ
به يشفى فؤادى والغليلُ
إلهى ذاب قلبى من ذنوبى
ومن فعْلِ القبيح أنا القتيلُ

إلهى رَدِّنــــى بــــرداءِ أنســــى
وألبسْنِــى المهــابــةَ يــا جليــلُ
إلهى زحــزحِ الأســـواء عنـــى
وكــنْ لى نـــاصرًا نِعــمَ الكفيـــلُ
إلهى سيـدى ، سنــدى وجـاهــى
فمالى غير عفـــوكَ لى مقيــــلُ
إلهى شتَّتــتْ جيــْش اصطبــارى
همومٌ شرحُهــــا أبــدًا يطـــولُ
إلهى صرتُ مــن وجــدى أُنـــادى
أنــا العاصــى المسـىء ، أنــا الذليـلُ
إلهى ضـــاع عمــرى فى غـــرور
وفى لهْوٍ وفى لعــــب يطــــولُ
إلهى طـــالما أنعمـــْتَ منــًّا
بجــودٍ منــك فضــْلاً يستطيــلُ
إلهى ظـــاهــرًا أدعـــوك ربـــِّى
كــذلــك بـاطنــًا أنــت الجليــلُ
إلهى عــــافنــــى مــــن كــُـلِّ داءٍ
بجـــاهِ مُحمــدٍ نعـــْم الخليـــلُ
إلهى غـــافــر الــــزلَّات يــا مــنْ
تعـــالى ، مـــالـــه أبــدا مثيـــلُ

إلهى فاز من ناداكَ ربِّى
أتاه الخيرُ حقًا والقبولُ
إلهى قلْتَ ادعونى أَجِبْكُم
فهاك العبدُ يدعو يا وكيلُ
إلهى كيف حالى يوم حَشْرٍ
إذا ما ضاق بالعاصى مقيلُ
إلهى لا إله سواكَ ربّى
تعالى ، لاتُمثلهُ العقولُ
إلهى مسنى ضرٌّ فأضحى
به جسمى يُبلبلهُ النحول
إلهى نَجنى من كلّ كرب
ويسّر لى أمورى يا كفيلُ
إلهى هذه الأوقاتُ تمضى
بأعمار لنا ، وبها تزولُ
إلهى والنى خيْرًا ، وأحسنْ
ختامى عندما يأتى الرسولُ
إلهى يا سميعُ أجبْ دعائى
بطه من تسيرُ له الحمُولُ
فصلِّ عليه ربِّى كُل وقتٍ
صلاة لا تحولُ ولا تزولُ
وآلٍ والصّحاب ذوى المعالى
وفى طى الكلامِ هُمو الفحُولُ


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

# سقـــانى محـــبوبى

*لإبراهيم الدسوقى*

« شـهدتُ وشـاهـدْنا وطابت نفـوسُنا
وقـــد لـــذَّ لى ذُلِّى إليـــه وخشيتـــى
أحـــنُّ على ذلٍّ وأهـــوى على هـــدى
وأسرى على علـــمٍ لأنـــوار طلْعـــةٍ »

« هو إبراهيم بن أبى المجد بن قـريش زين العابدين ، ينتهى نسبه إلى الإمام على بن أبـى طالب كرم الله وجهه . ولـد سنة ستمائة وثلاث هجريـة ، وتفقه على مـذهب الإمام الشـافعى ثـم اقتفى آثـار السادة الصوفيـة وصـار من أقطـابهم ، ومازالت طريقـه عامرة بـالصـالحين يقتفون آثاره فى مجاهـدة النفس وصدق التودد إلى الله وذكـره وحسن عبادته ، تـوفى سنة ستمائة وست وسبعين هجرية عـن ثلاثة وأربعين عاما ومسجده بمدينة دسوق عامر بزواره حتى اليوم » .



يقول إبراهيم الدسوقى :

سقـانـىَ محبوبـى بكـأسِ المحبـةِ
فتهْتُ عـن العشاقِ سكْرًا بِخلْوتـى
ولاح لنـا نـور الجلالـةِ لـوأضـا
لصُـم الجبـالِ الـراسيـات لـدُكّتِ
وكنت أنـا السّاقـى لمن كان حـاضرًا
أطـوفُ عليهـم كـرّةً بعـد كـرةِ
ونـادمنـى سرًّا بِسرٍّ وحكمـةٍ
وأن رسـول الله شيْخـى وقـدوتـى
وعـاهـدنـى عهـدًا حفظـتُ لعهـدهِ
وعشـتُ وثيقـًا صـادقـًا بمحبتـى
وحكّمنـى فى سـائر الأرض كُلهـا
وفى الجنِّ والأشبـاحِ والمرديـّةِ
وفى أرض صـين الصـين والشرق كُلِّها
لأقصـى بـلاد الله صحّـت ولايتـى
أنـا الحرفُ لا أُقـرا لكـلِّ منـاظـرِ
وكـلُّ الورى مـن أمـر ربِّى رعيّتـى
وكـم عـالمٍ قـد جاءنـا وهـو منكـرٌ
فصـار بفضـل الله من أهـلِ خرقتـى

وماقلتُ هذا القول فخْرًا وإنما
أتى الإذن كى لا يجهلون طريقتى
غنيت عن الدنيا بفيضِ عطائه
وأىُّ عطاياهم يدانى عطيّتى ؟
وصرتُ على بُعد المسافاتِ واصلاً
لأدنى دُنوٌّ فى ارْتفاعى لغايتى
فوجه الحبيب الحقِّ مشرقُ وجهتى
ونورُ الحبيبِ الحقِّ ساطع قبلتى
وفى القلب أشواقٌ يترجم فيضُها
عن الألقِ السامى إلى قُدْسِ حضرةِ
شهدت وشاهدنا ، وطابت نفوسنا
وقد لذّ لى ذلٌّ إليه وخشيتى
أحنُّ على ذلٍّ ، وأهوى على هدى
وأسرى على علمٍ لأنوارِ طلعةِ
رضيتُ به حتى دخلت رياضه
فأنعم بها من روضة أىِّ روضةِ
وما لذة العشاقِ إلا يقينهُم
بشملٍ جميعٍ بعد طول تشتتِ
وأغسلُ قلبى من سواك ، ولم أجد
لنفسى إلا نورذاتك بغْيتى
تعاليتَ بالعطْفِ الكريم ، رعايةً
فباركْتَ زلاتى وأمّنْتَ روعتى

# فطـــرة النفـــس

## لأبى العباس المرسى

« والنفـــسُ بين نــزولٍ فى عـــوالمهـــا
كـــآدمٍ ولــــه حـــــواءُ فى قــــرَنِ
والــــروحُ بين تــرقٍّ فى معــــارجهـــا
وهــى الموافــقُ للتعــرِيـف والمنــنِ »

« هو الإمــام العارف بالله شهاب الــدين أبو العباس أحمد بــن عمر الخزرجى الأنصــارى المرسى البلنسى ، ولد فى مــرسية من مقــاطعة بلنسية بــالأندلــس سنة ستمائة وست عشرة هجــرية ، ونســب إليها فسمى المرســى ، وفد مع شيخــه أبى الحسن الشــاذلى إلى مصر سنة ستمائة واثنتين وأربعين هـجرية وأقاما بالاسكندرية وأخذ أبو العباس يلقــى الــدروس ويعلم مبــادئ السلــوك وتطبيــب النفوس فى جــامــع العطارين ، وذاعت شـهـرته ـ بعد موت شيخه الشــاذلى ـ وتلقى العلم على يديه وصاحبه كثير من علماء عصره كــالبوصيرى وياقوت العرش والسكندرى وابن دقيق العيد والعز بن عبد السلام والحافظ المنذرى ـ وتوفى سنة ستمائة وخمس وثمانين هجرية » .



يقول أبو العباس المرسى :

إن كنت سائلنا عن خالصِ المنن
وعن تآلف ذاتِ النفسِ بالبدنِ

وعن تشبثها بالحظِّ مذ ألفت
أدرانَها فغَدتْ تشكو من العَطنِ

وعن بواعثها بالطبع مائلةً
تهوى بشهوتها فى ظلمة الشجنِ

وعن حقيقتها فى أصل معدِنها
لا ينثنى وصفُها منها إلى وثن

وعن تنزلها فى حكمها ولها
علمٌ يفرقها فى القُبح والحسَنِ

فاسمع هُديتَ علومًا عز سالكُها
على البيانِ ولا يغررك ذو لَسنِ

قصدًا إلى الحقِّ لا تخفى شواهدُها
قامت حقائقها بالأصل والفننِ

يا سائلى عن علومٍ ليس يُدركها
ذو فكرةٍ بفهومٍ لا ولا فِطنِ

لكن بنور علىٍّ جامعٍ خمدَت
له العقولُ وكلُّ الخلقِ فى وَسَنِ

خُذْهـا إليـك بحـق لسـتَ جـاهلـةُ
والأمـــر مُطَلَــعٌ والحقُّ قيــدنــى
على الحقيقـة خُذْ علـم الأمـور ولا
تحجبـك صـورتُها فى عَالمِ الـوطـن
ففطـرةُ النفـسِ سرٌّ لا يُحيـطُ بـه
عقــل تقيـدِ بـالأوهـامِ والـدرنِ
لكنهـا بــرزتْ بـالحكـم قـائمــةً
حتـى تـألفَهـا السكــانُ بـالسَّكـنِ
وكــىْ يقـال عبيـدٌ قـائمــون بما
ألقى مـن الأمر قبـل الخَلْق والمحـن
والنفـس بين نـزولٍ فى عــوالمهــا
كــآدم ولـــه حــواءُ فى قــرَنِ
والـروح بين تـرقٍّ فى معــارجهــا
وهـى الموافــقُ للتعـريــفِ والمنـنِ
مـن الحجابِ دنـت أنـوارُها فَبـدتْ
نــورًا تنــزل بين الماء والـدِّمـنِ
مثــالها فى العـُـلا مــرآةُ معــدِنِها
ألطـافُهــا خِفْيـة كـالسِّر فى العلـنِ
زيتـونـةٌ زيتُهـا نــورٌ لصـاحبهـا
قـامتْ حقـائقُهـا بـالأصلِ والقُنـنِ

ونار دعوتها ماءٌ لشارِبها

مُدَّت هدايتُها فى الكونِ والكُبُنِ

والكلُّ أنت بمعنًى لاخفاء به

والنور يحجبُهُ كالماءِ فى اللَّبنِ

والعبدُ محتجبٌ فى عزٍّ مالكه

دقت معارفُه فى الدهر والزمنِ



# ظهرتَ لكل الكون

*لابن عطاء الله السكندرى*

« ظهرت لكلّ الكون ، فـالكونُ مظهرٌ
وفيه لـه أيضا كما جـاءت الصحفُ
فـأىُّ فـؤادٍ عـن ودادك ينثنـى
وأيـة عينٍ بعـد قُـربـك لـن تغفـو »

« هو تـاج الدين أبـو العباس أحمد بـن عطاء الله من أهـل العلم فى التفسير والحديث والنحو والفقـه والأصول ، صحب أبـا العبـاس المرسى وأخذ عنه ثم استوطن القاهرة وكان له كرسى فى الأزهر يجلس عليه ليشرح علوم القوم وآثار السلـف ، توفى بالمدرسة المنصـورية فى القاهـرة سنة سبعمائة وتسـع هجريـة ، ومن أشهـر آثاره مجمـوعة الحكم التـى نظمها والتى تفيض بـالرمزيـات وتهيبها الشراح لأنها فى رأيهم تشتمل على الأسرار المصونـة والجواهر المكنونة ، بـالإضافة إلى آثاره الشعرية التى تدل على موهبة أصيلة وبيان محكم » .



يقول ابن عطاء الله السكندرى :

وكلىَ محتــاجٌ ، وأنــت لــك الغنـــى
ومثلى من يُخْطــى ، ومثلك مــن يعفُو
وأنــت الــذى أبــدى الــوداد تكـرمًا
ومثلُك مــن يرعى ، ومثلى مــن يجفو
وما طـاب عيش لم تكن فيــه واصلاً
ولم يصْفُ ، لا والله ، أنَّــى له يصـفـو
عـزمــتُ على أن أتــرك الكــون كُلــه
وأقفو سبيلَ الحبِّ ، والمُجْتبــى يقفُو
شـهـود كمـو يجلـو الحجـاب لأنـه
إذا حقَّق التحقيق صــار هو الكشفُ
ومــا أحســنَ الأحبابَ فى كُلِّ حــالــة
فـــلله مــا يُبـــدوا ولله مــا يخفـــوا
وإن الأولى لم يشـهـــدوك بمشـهـــدٍ
قلـوبُهم عــن نيـْلِ سر الهوى غلـفُ
وأنــت الــذى أظهرتَ ثــم ظهـرْت فى
جميـــع المبــادىِ مثلما شـهـدَ العـَرف
ظهرْت لكـلِّ الكون، فالكـون مُظهرٌ
وفيه لــه أيضًا كما جـاءتِ الصُّحفُ
فـــأىّ فـؤادٍ عـــن فـؤادك ينثنـــى
وأيــةُ عيْنٍ بعـــد قـربـك لـــن تغفــو

وأيــةَ نفْسٍ لم يُملهـــا هــواكمـــو
على حُبّكم طُرًّا ، نفــوسُ الورى وقفُ

ويقول ابـن عطاء الله السكندرى فى وصــف الطريــق وشرح أحوال سالكيه والنصح لمن يريد رشاد الهداية :

أيا صاحِ هذا الرّكـبُ قد سار مُسرعًا
ونحنُ قعــودٌ ، ما الــذى أنت صـــانعُ
أترْضـــى بأن تبقــى المُخلَّف بعــدهم
صريــع الأمــانــى ، والغــرام ينــازع
وهــذا لســان الكون ينطـق جهـرةً
بــأنَّ جميـــع الكـائنـاتِ قـــواطـعُ
وأنْ لا يرى وجــه السبيلِ ســوى امرى
رمى بــالسوى لم تختـدعْهُ المطـامعُ
ومــن أبصر الأشيــاء والحقُّ قبْلهَـا
فغيّـب مصنوعـًا بمــن هــو صانــعُ
بـــوادهُ أنـــوارٍ لمن كـــان ذاهبـــًا
وتحقيـــق أسرارٍ لمن هـــو راجـــعُ
فقــم وانظـر الأكوانَ والنــورُ عمّهـا
ففجــرُ التّدانــى نحْوكَ اليــومَ طالــعُ
وكـــنْ عبـْدَهُ أَلـــقِ القيـاد لحكمـــه
وإيـــاك تـــدبيرًا فما هـــو نـــافـــعُ

أتحكـــم تـــدبيرًا وغيرُك حـــاكـــمٌ

أأنـــت لأحكـــامِ الإلـــه تُنـــازعُ ؟

فمحـــــو إرادات وكـــلُّ مشيئـــةٍ

هو الغَرضُ الأقصى فهل أنت سامعُ

كـذلـــك ســار الأولـــون فـــأدركـوا

على إثـرهـــم فَلْيَسر مـــن هـــو تـابـعُ

على نفْســهِ فلْيَبـكِ من كـان طَـالبًا

ومـــا لُمســتْ ممـــن يُحبُّ لـوامـــعُ

على نفْســهِ فليْبـكِ من كـان بـاكيًا

أيـذهبُ وقـتٌ وهـــو بـاللهو ضـائعٌ



# سُكْر المحبّة

## لابن أرقم النميرى الأندلسى

« فما بـــالهم سُكـــر المحبـــةِ أنكـــروا
ولا شربـــوا مـــن خمرِ وجـــدانها صرفـــا
يـــريـــدون إدراكَ المعـــانـــى حقيقـــةً
وهـــل يجدُ التحْقيـــق مـــن لم يُجدْ وصفـــا »

« هو أبـو محمـد عبـد الله بن عـبد العظـيم بـن أرقـم النميـرى الأندلسـى من أهل وادى آش ، يكنى أبا عـامر ، يقول عنه لسان الدين ابن الخطيب فى كتابه الإحاطة فى أخبار غرناطة ( الجزء الثالث) :

« كان أحد شيـوخ بلدى وطلبته ، مشاركًا فى فنـون من فقه وأدب وعربيـة وهى أغلب الفنون عليـه ، وكان مطرح السّمت ، مخشـوشن الـزىّ، قليل المبـالاة بنفسه ، مختصرًا فى كـافـة شئونـه ، وكان بيتـه معمـورًا بالعلماء أولى الأصـالـة والتعين ، وقـد تصدّر ببلـده للفُتيـا والتدريـس والاستماع ، وكانت وفـاته ببلـده سنة أربعين وسبعمائة هجرية » .



يقول ابن أرقم النميرى الأندلسى :

تعـــالـوا نُعـــاطيهـــا مُقــدّســةً صِرفــا
فنـرشفُهـا فى بســْط روض الهدى رشْفـا

أنـــار بها الأكـــوان نـــورٌ فـــأشرقــت
ومـن قَبـلِ مـوجـوداتها وُجــدت لُطْفـا

شربنـــا بـأكـــوابِ الصفـــاء صفـاءَهـــا
فللـــهِ مـــا أحْلى هــواهـــا ومـــا أصْفـــى

وغبْنـا عن الإحســاسِ من طيـبِ سُكْرهـا
فـلاحَ لنـا فى الكـون مـا لم يكـنْ يخْفـى

ولمّا تجلّى الحســْنُ فى حُجـْبِ قـُدْســهِ
حُجبنـا فلـم نُبصر حِجـابـًا ولا سُجفـا

ورُحنـــا بـروض الأُنـــسِ نجنـــى ثماره
ونقطـف بـــالإخـــلاص أزهــارهـــا قطْفـا

وبحنـــا بِسرِّ الحب فى مجلـــسِ الهوى
ولم نخـــْشَ إذ بُحْنـــا بِسرِّ الهوى حتْفــا

ونحـــن أنـــاس ليـــس ينكـــرُ أمــرُنــا
عـــرفْنـا وعـــرفنـا المعـَارفُ والعـُرفـــا

فما بـــالهم سكـــرَ المحبـــةِ أنكـــروا
ولا شربـــوا مـــن خمر وجـــدانها صرْفـــا

يـــريـــدون إدراكَ المعـــانـــى حقيقـــة
وهــل يجد التحقيـق مـــن لم يجدْ وصفـا
ومـــا الحَقُّ إلا ظـــاهـــرٌ فى وجـــودِهِ
وأسرارُه فى شرْح آيـــاتـــــه تُلْفـــى
فلـو قصدوا المقصـود بالصـدق شاهـدوا
مصـــابيـــح أنـــوار تُنـــزَّهُ أن تُطْفـــا
ولـــو أخلصـــوا فى ذاتـــه وصلـــوا بـــه
إليـــه ، ونـــالـوا عنـده أجْـرَ مـــن وفَّى
ولـو لمحـــوا معنَـى المحـــاسِـنِ صيغـةً
لما وصفـــوا قـرْطـاً ، ولا ذكـروا شنْفـا
ألا أيها الســـاقـــى ظمئنـــا فَسقِّنـــا
بـألطافهـا يُشفى مِـن الجهـل ما يُشْفـى
وعـــاود ففـــى الأكـــواب منهـــا بقيـةٌ
بها العيـشُ يسْتحلَى ، بها الأنـسُ يُستـوْفَى
ومـــا طيبهـــا إلا بلطـــفِ مـــدُيـــرِهـــا
بحيـث مُنـادى الـرشـد نَبّـه مـن أغفَـى
أمـــولاىَ يـــا مـــولاىَ دعـــوة مبعـــدٍ
على الهلْـكِ مـن تسـويـف رحلتـه أشفـى
بعثـــت ودادى واشتيـــاقـــى وسيلـــةً
وإنـــىّ فى بـــاب الـــرجـــا بـــاسـطٌ كفـــاًّ
وإنّ ذنـــوبـــى كـــالجبـــالِ رجـــاحـــةً
وحبـــك يـــا مـــولاى ينسفهـــا نسفـــا

# الملجـــأ الأحمـــى

## لابن الجيّاب الأندلسى

« محبتـــه شرطُ القبـــولِ ، فمـــن خلـــتْ
صحيفتـــهُ منهـــا ، فقـــد زاغَ واشتطـــاً
بـــه الحقُّ وضّـــاحٌ ، بـــه الإفـــك زاهـــقٌ
بـــه الفوزُ مـــرجـــوٌّ ، به الـــذّنـــبُ قد حُطـــاً »

« هو أبـو الحسن على بن الجياب الأنصـارى الأندلسى ، مـن أهل غرنـاطة جاء فى تـرجمته فى كتاب الإحاطـة فى أخبار غرنـاطة ( الجزء الأول ) :

« شيخنا ورئيسنا العلامة البليغ ، كان على ما كان عليه من التفنن والإمامة فى البلاغة والأخذ بأطراف الطلب والاستيلاء على غاية الأدب ، صـاحب مجاهـدة وملازمـة عبـادة ، على طريقـة مُثلى فى الاستقامـة والنزاهـة وإيثار التقشف ، محب لأهـل الخير والصلاح .. وهـو شيخ طلبة الأندلس دراية وتحقيقًا ومشاركةً فى كثير العلوم ، توفى سنة تسع وأربعين وسبعمائة هجرية » .



يقول ابن الجيّاب الأندلسي :

أهــزْلاً وقــد جــدَّت بـك اللِّمــَّةُ الشمطا
وأمْنــاً ، وقــد ســادرتَها حيــّةً رقْطــا

أغــرَّك طــول العُمــرِ فى غير طــائلٍ
وسرك أن الموت فى سيرِه أَبْطــــــا

رويــــدًا فــــإن الموت أسرعُ وافــدٍ
على عُمــرك الفــانـى ركــائبــهُ حطـًّا

فــإذ ذاكَ لا تسطيــعُ إدراكَ مــا مضــى
بحــالٍ ، ولا قبضــًا تُطيــقُ ولا بَسْطــا

تــأهــَّب فقـد وافــاك سيبـك مُنــذرًا
وهــا هـو فى فــَوْديـكَ أحــرفَهُ خَطـًّا

فــرافقــتَ منـه كــاتــبَ السر واشيــًا
لـــه العَلـــَم الأعلى ، يخطُّ بـــه خَطـــًّا

مُعمـــىّ كتــاب فكـــّه احــذرْ ، فهــذه
سفينـــةُ هــذا العُمــرِ قــاربـت الشطـــًّا

وقـد طــالما خــاضـت بـك اللُّجــجَ التــى
خبطـــْتَ بهَا فى كــُلِّ مهلكـــةٍ خبْطـــا

ومـــازلـــت فى أمــواجهـــا مُتقلّبـــًا
فـــآونـــةً رفعـــًا ، وآونـــةً حطـــا

فقــد أوشكــتْ تلقيـكَ فى قفــْرِ حفــرةٍ
يُشــدُّ عليـــكَ الجانبــانِ بها ضغْطـــا

ولسْتَ على علمٍ بما أنت بعْدها
مُلاقٍ ، أرضوانًا من الله أم سُخطا
وأعجبُ شيءٍ منك دعواكَ في النهى
وهذا الهوى المُردى على العقل قد غطّى
قسطتَ عن الحقِّ المُبينِ جهالةً
وقد غالطتْك النفسُ ، فادَّعت القسْطا
وطاوعْتَ شيطانًا تجيبُ إذا دعا
وتقبلُ إن أغْوى وتأخذُ إن أعطى
تناءى عن الأخرى ، وقد حان حيْنها
تداني من الدنيا ، وقد أزمعتْ شَحْطا
وتمنحها حُبًّا ، وفرْطَ صبابةٍ
وما منَحتْ إلا القتادَةَ والخمطا
فها أنت تهوى وصلَها وهي فاركٌ
وتأملُ قُربًا من حماها وقد شطًّا
صراطُ هدىً نكَّبتَ عنه عمايةً
ودارُ ردًى خالفْتَ في حُبِّها الشرْطا
فما لك إلا السيِّدُ الشافعُ الذي
له فضلُ جاهٍ كُلما يرتضي نُعْطَى
دليلٌ إلى الرحمن ، فانهجْ سبيلَهُ
فمن حاد عن نهج السَّبيلِ فقد أخطا

محبتـــهُ شرطُ القبــولِ فمـــن خَلَــتْ
صحيفتـــهُ منهـــا فقــد زاغَ واشتطـــًّا
ومـــا قُبلَــتْ منـــه لـــدى الله قُـــربـــةٌ
ولا زكــت الأعمالُ بـــل حبطـــتْ حَبطـــا
بـــه الحقُّ وضـــاحٌ ، بـــه الإفـــك زاهـــقٌ
بـــه الفـــوز مـــرجـــوٌ ، به الـــذنـــب قـــد حُطّـــا
هـــو الملجـــأُ الأَحْمَى ، هـــو الموئلُ الـــذى
بـــه فى غـــدٍ يستشفـــعُ المذنـــبُ الخطـــًّا[1]
لقـــد مـــازجـــت روحـــى محبَّته التـــى
بقلبـــى خُطـــَّت قبـــل أن أعـــرفَ الخطّـــا

(١) أى الخطاء ( الكثير ارتكاب الخطايا ) .



# سلمى

*لليافعى*

« فيا ليلةً فيها السعادات والمنى
لقد صغُرت فى جنْبها ليلةُ القَدْرِ
فلما شربنا الراحَ فى ساحة الرِّضا
أتانا أغرُّ السعد بالخِلَعِ الخضرِ »

« هو عفيف الدين عبد الله اليافعى ، ولد فى اليمن ودرس الفقه وعلوم القرآن ومال إلى التصوف ، فارتحل إلى القدس ودمشق والحجاز ومصر وأخذ العلم عن أعلام علماء عصره حتى صار مشهودًا له بالفضل والمنزلة ، له مؤلفات مشهورة فى التصوف ، أهمُّها: « روض الرياحين فى مناقب الصالحين » الذى يضم سير خمسمائة من أولياء الصوفية ، « ونشر المحاسن الغالية فى فضل أصحاب المقامات العالية » وفيه يشرح اليافعى الأحوال والمقامات بأسلوب أدبى جميل ، كما دوَّن فيه أكثر ما نظمه من قصائد فى الحب الإلهى والترانيم الصوفية .

توفى سنة سبعمائة وثمانى وستين هجرية .



يقول اليافعى :

سلا عن حمى سلمى،وعن أهله الغرِّ
عسى خبرٌ يلقاكما ، طيّبَ الذكرِ
يجىءُ به من نحوها عذبُ منطق
يفوح به من ريحها طيّبُ النشرِ
يُخبّر عن سلمى وعن ذلك الحمى
وقول لسان الحال فى نظمه الدرّى
رعى الله عهدًا مرَّ مع جيرة الحمى
هنا فى رياضٍ زاهراتٍ بهِ زُهْرِ
سقتنا بها سلمى من الراح عندما
بدتْ فأضاء الكون من جانب الخِدرِ
أماطت حجابًا عن بهاء جمالها
فهمنا سكارى فى المهامة والقفرِ
نرومُ التسلِّى عن هواها ببُعْدنا
وكلُّ جمالٍ فى الوجود بها يغرى
خليلَّ ما سلمى ونجدٌ وما الحمى
وما راحُها ، ما كأسُها ، ما الهوى العُذرى
شربنا حميًّا الكأس فى قُدس حضرة
وأكرم بها فى حضرة القُدْسِ من خمْرِ
لنا عُصرت من كرْم نورِ جمالِ من
سقانا ، وقد غبنا وحرنا فما ندرى

سكـــرنـــا بها مــن شمهـــا قبـــلَ شرْبها
نشـــاوى بـريـــّاهـــا إلى آخـــر الـدهـــرِ
أو السّكـر ذا مــن رؤية الكـأسِ ، أو أنــتْ
بــه رؤيــة الســاقـــى إلينــا ذوى السُّكــرِ
تجلَّى بـــأوصـــافِ الجمالِ فشـــاهــدت
عيـونٌ قلـــوبَ مــا بـــه حــار ذو الفِكــْرِ
فيـــاليلـــةً فيهـــا السعـّادات والمَنـــى
لقـــد صغـــُرت فى جنبهـــا ليلـــةُ القــدْرِ
فلما شربنـا الـــراحَ فى ســاحــةِ الـــرِّضــا
أتـــانــا أغـــرُّ السَّعــْدِ بــالخلــعِ الخُضْرِ
رســـول عنـــايـــاتٍ بـــرســـْم ولايـــة
وتصريفنـــا فى الملـــْكِ فى الْبَرِّ والبحـــْرِ
وضـــاءت لنـــا أنـــوارُ غيـْب وشـــوهــدت
أمـــــــورٌ وأعلمنـــــــا بها أنها تجرى
وحلّـــت بـوادى طـــور قلـب معـــارف
زهــت فيــه كـــم حسنـاء فى داخـل الخدرِ
وكـــمْ حكـــم تُجلى مـــلاح ، كـــأنها
عـــرائسُ أبكـــارٌ على منطـــق الـــدرِّ
وكـــم يـــدفـــع الله البـــلايـــا بســـادةٍ
مــن الخلـْق فى كشـفِ الشـدائد والضُرِّ
فمــنْ لم بـــذا يـؤمــنْ ، فقـولـــوا لــه إذا
تَجرَّا على الغـــرِّ المشـــايـــخ بـــالنُكــْرِ

تجلّى فضـــُـولا فى فضـــائل ســـادة
لهم فى سما مجدِ المفـــاخــر كـــم قَصْرِ
مقــامـــاتُ أحبــاب تـــرى الشهــب دونَها
بنـــوْهًـــا بيـــاقـــوت المواهـــبِ والـــدرِّ
تضـــىء الـــدّيــاجـــى مـــن بهاء جمالِها
بما يهتـدى مـَنْ للعـلا نحـــوهـَا يسرى
ومـــا تلــك مـن أشبـاهِ عُشـِّك ، فـادرُجـى
إلى جـوفِ عـــشٍّ فى الغيـابـــاتِ أو جُحْـرِ



# المنبهجـــة

*لمصطفى البكرى*

« مـــولاى أتَـيْـتُــــك منكســرا
وبغيرك شــــوقـــــى لم يهجِ
هـــل غيرُ جنـــابـِـكَ يقصــــد ، لا
وجمالـــك ذى الحُســـنِ البَهــجِ »

« ولد فى دمشــق سنة ألــف وتسع وتسعين هجـرية ، حيـث تعلم العلوم الـدينية ثم انتســب إلى الطريقة الخلوتيـة وأخذ عن مشــايخها وأقطابها ، ونذر نفسه للزهد والتقوى والتـزوه للآخرة ، ثم هاجر إلى مصر ونشر فيها الطريقة الخلوتية ـ التى ما يزال لها أشياع ومريدون حتى اليوم ـ حيث توفى سنــة ألف ومائة واثنتين وستين هجرية ، بعد أن ترك آثارًا شعـرية وأورادا وابتهالات صوفية كثيرة مـن بينها هذه القصيدة التـى سميت بالمنبهجة ويقـرؤها جميع مـريديه يوميـا قبل صلاة الفجر » .



يقول مصطفى البكرى :

قــم نحــــو حماهُ وابتهــــج

وعلى ذاك المَحْيــــا فعــــُجِ

ودع الأكـــوان وقـــمْ غسقــاً

واصـــدق فى الشـــوق وفى اللَّهـــج

والـــزم بـــاب الأستـــاذ تفـــُزْ

وتكــون بـــذلــك خـــلَّ نجـــى

واخـــرج عـــن كـــلِّ هـــوى أبـــدًا

ودع التلفيـــــق مـــــع الهرَجِ

إيـــاك أُخـــىَّ تـــرافـــقُ مـــن

لم ينْهــكَ عـــن طُـــرق العـــوج

اقنـــع وازهـــدْ واتـــركـــْهُ كـــذا

كَ ببـــابِ ســـواهُ لا تلـــج

وادخـــل للحـــان خليلى ومـــِلْ

نحـــو الخمَّار أبـــــى السُّرُجِ

واشرب واطـــرب لا تخْشَ ســُوًى

إيـــاك تملْ عـــن ذى النَّهـــَجِ

كـــم أنـــت كـــذا ، لم تصْـــحُ ، أفـــقْ

وإلى الأبـــوابِ فقـــمْ ولـــُجِ

مـــــولاى أتيتـــــك منكسرًا

وبغيرك شــــوقـــــى لم يهج

وأتيــــتُ إليــــك خليــًّا مـــن

صــومــى وصــلاتــى مــعْ حجـجــى

وكـــــذا علمـــــى وكـــــذا عملى

وكـــذاك دليلى مــــعْ حُجـجـــى

لا أملـــك شيئـــاً غير الـــدَّمــْـ

ـــعِ مخافـةَ أن يغشـــى وهجـــى

هـــل غيرُ جنـــابِــك يُقصـــدُ ، لا

وجمالـــك ذى الحســـنِ البهـــجِ

مـــــن يقصـــد غيرك فهـــو إذا

بظـــلامِ البعـــد تـــراهُ فجـــِى

مـن أنـــت تُضـلُّ فـذاك مـــن الـــ

ـــــهلاَّكِ ومــــن تهدى فَنجـــى

ودمـــوعُ العين تُســـابقنـــى

مـــن خـــوفـك تجرى كـــاللّجــجِ

يـــا عـــاذلَ قلبـــى ويـــْكَ فــَدعْ

عـــذْلى واقْصِر عــــن ذا الحرج

كـــم تعـــذلنـــى لم تعـــذرنـــى

دعنـــى فى البســـطِ وفى الفـــرَجِ

أذنـــى لحبيبــى صـــاغيـــةٌ
صُمــَّت عنـد الــواشـى السَّمــجِ
يــا صــاحـبَ حــانِ الخَمــْرِ أدرْ
صرفـــًا واتـــركْ للممتـــزجِ
وأدرْ كــــأس الأسرارِ ودعـــــــ
ـنِ أصيرُ بـــه مـــن ذى الهمـــج
مــــولاى بسر الجمـــع كـــذا
ك وجمعِ الجمـــعِ وكـُلِّ شجـــىِ
بــــالـــذات بسرِّ السرِّ ، بمـــن
إفضـــالــك ربِّـــى منــك رُجـــى
بحقيقتـــك العظْمـــى ربِّـــى
وبنـــورِ النـــور المنْبَلـــجِ
بعماءٍ كنـــــت بـــــه أزلاً
بمحمـــد مـــن جـــا بـــالبَلـــجِ
وبِسر القــــُرب كـــذاك الحـ
ـــبِّ ، وأهـــل الجذْبِ المنُعـــرجِ
وبما أوجـــدْتَ مـــن الأكـــوا
نِ بما فيهـــنَّ مـــن الأرجِ
وبـــأهـــل الحى وبهجتهـــم
وببحــْرِ القـــدرةِ والمَرج

وبطيـــبِ الـــوصـــلِ ولـــذتـــه
ببســـــاط الأنـــسِ المُنْتَســـَجِ
وبقلـــــب فى بلـــواكَ غـــــدَا
وحيـــاتـــكَ ليـــسَ بمنـــزعـــجِ
بتجلّى الليـــــــل وعـــــــالمه
وظـــلام الكـــــون كما السَّبـــَجِ
بمنـــــازل أفـــــلاكٍ وكـــــذا
بمطـــــالعهـــــا ثـــــم البُرُجِ
بـــالآل ، بصحـــب ، مـــن بهمـــو
كـــــلُّ الخيرات إلينـــــا تجيِ
يسِّر وأجـــْر كَسْرى ، بـــرضـًـــا
ليكـــون بـــوصلـــك مبتهجـــى
واخلـــعْ خِلـــعَ الـــرِّضـــوان على
صـــبٍّ فى حُبـــِّك حِـــبُّ هـــجِ
وامنـــح قلبـــى نفحـــاتـــك يـــا
مـــولاىَ وعجـــِّلْ بـــالفـــرَجِ
واحسرةَ قلبــــــــى إن لم تَمْحُ
خطـــايـــا الـــذّنـــبِ مـــن الـــدَّرجِ
واغفـــرْ يـــاربِّ لنـــاظمهـــا
ولـــه رقِّـــى أعلى الـــدَّرجِ

واسمــــعْ للســـامــِع مــا نُشــدت

قـــم نحـــو حماهُ وابتهـــجِ

أو مـــــا جــاء سَحـــرًا يحدو

الشـــدّةُ أودتْ بـــالمهـــجِ

وصـــــــــــلاةُ الله على الهادى

وســـــلام يُهدى فى الحِجـــجِ

لمحمـــــدنـــا ولأحمدنـــا

مـــا فـــاح أقـــاحٌ فى المُرُجِ

مــــــا مـــال مُحب يهواهُ

أو ســـار الـــركـــبُ على السُّرُجِ

أو مـــا داعٍ يـــدعـــو المولى

يـــرجـــو للنصر مـــع الفـــرجِ



# مــالـى ســـواك

*لأحمد الحلوانى*

« أستغفــرُ الله ممــا قـــد قلتـــهُ وهـــو زورٌ
ومـــن تنــاسٍ بِنـــاسٍ ، عمـــن هــو المذكـــورُ »

« هو الشيخ العلامـة أبو عبد الرحيم أحمد بن إسماعيـل الحلوانى الخليجى الشافعى ، ولد سنة ألـف ومائتين وتسـع وأربعين هجرية فى بلدة رأس الخليج مـن أعمال محافظة الغربية، وحفظ القـرآن ثم أتقن علوم الدين واللغة ، ثم ارتحل إلى طنطا لتحصيل المزيد من العلم حتى انتهى به الأمـر إلى الأزهر الشريف حيث تتلمذ على صفـوة الأعلام من علمائه كالقَصبى والباجـورى والخضرى والشبراوى . توفى سنة ألف وثلاثمائة وثمانـى هجريـة بعد أن تـرك وراءه عدة مصنفـات دينية والكثير من الأشعار والأذكار الصوفية »[1].

---

( ١ ) السمو الروحى فى الأدب الصوفى تأليف أحمد عبد المنعم عبد السلام الحلوانى.



يقول أحمد الحلوانى :

أستغفــر الله ربــّى ... فــالله ربٌّ غفــورُ
ممـا جنـاهُ جنـَانـى ... أو اللســانُ العَثــُور
أو الجوارحُ منـــِّى ... فــإنها قــد تثــورُ
أو ظاهرٌ ليـس يَخفى ... أو بـاطــنٌ مستــورُ
أستغفــرُ الله ممـــا ... قـد قلْتـُه وهــو زورُ
ومـن تَنـاسٍ بنـاسٍ ... عمَّـن هــو المذكـورُ
ومـن خـلافِ أمـور ... أنــا بها مـأمـــورُ
أستغفــرُ الله ممـــاً ... جـَرى بــه المقـدورُ
مـن كلِّ أمـرٍ معيـب ... قـد كنتُ فيـه أمـورُ
لم يُرض ربـِّى وقلبىً ... بكسْبــــه مسرورُ
إن سرتُ يـومـًا إليـه ... أطير حين أسيرُ
وعنـــد أولِ جـــزءٍ ... منـــهُ يجىء الأخيرُ
وإن تـوخيــتُ خيْرًا ... صرفـًا فكـم أستخيرُ
وإن تهممـتُ يـومـًا ... إليـــه جـاءَ الفُتــورُ
وللتقـــدمِ أنـــوى ... فيعـــرُض التــأخيرُ
هبْنى تقـدمتُ ، مــاذا ... يُجدى وقلبـى نفـورُ
وهبــْه غيْرَ نفـــورِ ... هل فيـه ثمَّ حضـورُ
عـدمتــهُ مـــن فـؤادٍ ... عنـد الصـــلاةِ يطيرُ
أنـوى فيذهــبُ لبـِّى ... وفى الســـلام يحورُ
أظـلُّ أحســبُ فيهـا ... وما تحتويــه الدُّهورُ

كأنّني بحسابي   مُوَكَّلٌ أو أجيرُ

فلو تراني فيها   لقلتَ : ذا مبهورُ

ففي العبادة طرْفي   ولو بصيرًا ضريرُ

وفي الذنوبِ فؤادي   على عَماهُ بصيرُ

يا ويْلنا من ذنوب   فُجورُها مفجورُ

ومن خُطايَ اللواتي   إلى الخطى تستطيرُ

وآه من كلِّ إثم   عليه يُطوى الضميرُ

ومن مقاصد سوءٍ   جرى به التعبيرُ

شيءٌ ومنْ لست أدري؟   فذاك شيءٌ كثيرُ

قبائحٌ كنتُ فيها   أسْرى وطوْرًا أسيرُ

ماتت وعاشت، فقلبي   من أجلها مفطورُ

سُررتُ منها زمانًا   وغمُّها مذخورُ

نسيتها ودعاها   كتابيَ المسطورُ

ماذا أقول لربِّي   إذا بدا التصويرُ

ياربِّ أنت رحيمٌ   وبالسَّماحِ جديرُ

ياربِّ أنت عفوٌّ   وأنت ربٌّ قديرُ

ياربِّ إنني حقيرٌ   جدًّا وأنت الكبيرُ

وشأنُ من جلَّ يغضي   إذا أساءَ الحقيرُ

وأين تُربٌ خسيسٌ   من ربِّه يا مُجيرُ

وما أريدُ احتجاجًا   عليكَ بل أستجيرُ

أجرْ عبيدَكَ يا منْ   سواه ليس يُجيرُ

مــالى ســواكَ أَغثنــى ... وهــل ســواكَ نصيرُ
ولى إليــك شفيـــعٌ ... بـــــدرُ السماءِالمنيرُ
غـوْثُ الأنام المرجّـى ... إذا السماء تمورُ
بــه توسَّلــْتُّ فــاجبر ... كَسْرى ، فإنى كسيرُ
واسكُب عليه التحايا ... ما فــاض منه النــورُ



# تعشقت نور الله

*للشيخ على عقل*

وهـــل غير ذات الله للنفـس مطلـــب
حرامٌ سوى الرحمن يدخلُ فى نفسى
وما اتَّخذت روحــى سوى الله غـايةً
فتــم الهدى للروح والقلـب والحسِّ

« هـو الشيـــخ على عقـل أحـد علماء العصر فى التصـــوف والعلـوم الشرعية ، ولـد سنة ألــف وثمانمائة وأربع وتسعين ميــلادية ، وكـف بصره بعد مولده ، فوهبه والــده للقرآن والدين منذ صغره ، ودرس فى الأزهر الشريف ، ثم تقلبت به مجالس الذكر والإنشاد حتى صار علمًا يتعشقه المريدون ، توفى سنــة ألف وتسعمائة وثمانى وأربعين بعد أن ترك ديوانا شعريا يضم ترانيمه الصوفية ومدائحه النبوية هو ديوان « الإلهام »[1].

(١) السموّ الروحى فى الأدب الصوفى تاليف أحمد عبد المنعم عبد السلام الحلوانى .



يقول الشيخ على عقل :

قتلتُ هوى نفسى ، فعشتُ بلا نفْسِ
وجافيتُ أنسى ، فانحدرتُ إلى الأنْسِ

ولم أُبدِ أمرى للعبادِ ، فطالما
كتمتُ الذى ألقى عن الجنِّ والإنْسِ

وأدركتُ بالوجدانِ سرَّ أحبَّتى
وعاينتُ آياتِ اليقين بلا لبْسِ

وعشتُ زمانى لست أحفل بالورى
وكيف ، وقلبى هام فى مشهدِ القُدْسِ

وعلَّمتُ غيرى ما أفادَ من الهُدى
فلم يبْقَ ذو فهمٍ لدىَّ على طمْسِ

إذا وُسِّد الناسُ القبورَ ، فإننى
جعلتُ التقى والذكر بين الورى رمْسى

ولم أخْشَ من بأس ولم أخشَ طاغيًا
ومن يخشَ ذات الله لم يرَ من بأسِ

وهل غيرُ ذاتِ الله للنفسِ مطلبٌ
حرامٌ سوى الرحمنِ يدخلُ فى نفسى

وتوجّتُ بالقرآنِ نفسى عقيدةً
أصونُ به نفسى عن الزَّيْغ والدسِّ

وما اتخذت روحى سوى الله غايةً
فَتم الهدى للروح والقلبِ والحسِّ

وإن شرب الناس الطِّلا وتصببوا
فسُنَّةُ خلق الله فى شُربها كأسى
وإن رفع المثرون عُجبًا رءوسهم
رفعتُ بذكر الله فوق الورى رأسى
وإن جعلوا الشمس اهتداءً ليومهم
جعلتُ رضا ربِّى وآيته شمسى
وإن غرسوا زرْعًا لنْيلِ حصادهِ
فتقْوى إله العرش بين الورى غَرسى
تعشَّقتُ نور الله وهو بصيرتى
وقد وضح البرهانُ من آية الكرسى
ومذ شاهدت روحى جلالكَ وارتقتْ
تجرَّدتُ عن معْناى فى عالمِ الحسِّ
أحبّك يا ربى محبةً موقنٍ
ومن قوةِ الإيمانِ أُصبح أو أُمسى
فؤادىَ قد أبعدتُ عن مشهد الورى
فطُهِّر فى نجواكَ من ظلمةِ الرِّجْسِ
أطوف على الأبواب قلبىَ موجَعٌ
وليس سوى رحماكَ للقلب من نِطْسِ
وأعدمنى فى الحبِّ علمى بقدْرِه
فليس غرامى فيه يدرك عن قيْسِ
ولم أعشق الدنيا فتلك مجازة
تهيءُ للأخرى وفى فوتها عُرسى

لقــاؤُك يــا رحمنُ عيـــدى وعـُدتـــى
ونـُورك غيثـى وهـو لى فى الـورى أُنسـى

وبحــْرُك منـه قـد لقيـتُ جــواهـــرى
بشـاطئـه سُفنـى على لُجِّهِ غَطسـى

وطيـبُ الــورى ورْسٌ ومســك وعنبرٌ
وطيبـيَ مـن مَحْياكَ أَسمـى مـن الـورسِ

ولسـتُ مـن الـدنيـا ، أميـلُ إلى العـُلا
فـإنَّ عـُلا الـدنيـا لأصحـابـه يُنسـى

أُمتـع أعضـائى بـذكـرك دائمًا
وهـل غيرُ ذكـْر الله يسكـُنُ فى نفسـى

وكـُلُّ رجـائى أن أحبـك صـادقـًا
إذ الصـدقُ فى الـوجـدِان مـرتبـة القـُدْسِ

ومـا فضلـه وقـْفٌ على أىِّ عـالم
وحقـِّك مـا حـُدَّ العطـاءً على جنـس

إذا رضـى الـرحمن عـن قلـب عَبـْدِهِ
جـرت مـركَبُ الأقـدار معـة على اليبْس

تخلَّ ولا تحفـلْ بجـنٍّ ولا إنـسِ
وعـشْ فى هـوى الرحمنِ تسعـدُ بـالأنْسِ

وأقبـل على مـولاك بـالقلـب مخُلصـًا
وأسلـمْ وسلـّم واَتَّجه طـالـب القـُدْسِ

وخـُذ لـك بـالإيمان أصـدقَ وجهـة
وطهـر بها نفسـًا عـن الغـى والـرجـس

تجرد تجدْ مولاكَ أكبرَ ناصر
وفوّض له ما كان فى الغدِّ والأمْسِ

حياةُ الورى حُلوٌ وُمرٌّ وإنما
حلا المرءُ بالتوحيد من رقة الحسِّ

ومن لا يرى إلا الإله مراده
حرامٌ عليه الخوضُ فى العرشِ والكرسى

ومن يتعشق نوُره وجلالُه
فليس له التشبيبُ بالبدْرِ والشمسِ

وإنك لو عظّمْتَ دينكَ عالمًا
وعاملت بالحسْنى وأدّبتَ للنّفسِ

وكنت على الأحداثِ بالله راضيًا
سواءٌ عليك الموتُ أو ساعةُ العُرْسِ

سعدْتَ من الدنيا بربّك محُسنًا
ونلت من الأخرى عطاء بلا بخْسِ

يقولون لى من أنت ؟ قلتُ : مُوحّدٌ
إلى ربه يسعى ولم يرَ من بأْسِ

إذا قيل لى اطلبْ قلت ربّىَ مطلبى
وإن قيل لى اشربْ قلتُ أنواره كأسى

وكلُّ عهودٍ قد تنكّس أصلها
ولكنّ عهد الله باق بلا طَمْسِ

سلونى عن العشاق قد ذقتُ حُبّهم
وإنى لهم رأسٌ إذا كان من رأسِ

ومـا هم سـوى أعضـاء جسْمـى وبزتـى
أصـافحهـم مـا شئـتُ لكـن بـلا لمسِ
ومـا حيلتـى إلا انكسـارىَ فى الحمـى
وإن انكسـار القلب يكشـف عـن قدسـى
وحلـوُ الهوى عنـدى لقـاء أحبَّتـى
ومـُر الهوى عنـدى وفى هجرهـم تعْسـى
وأعـرفُ رحمانـى وأُدركُ عفـوهُ
وأنهض معتـزا ومـا أنـَا بـالمنْسـى
وإنَّ حبـال الـوجـدِ تـربـط مهجتـى
وقلبـى بحـبٍّ الله يعبـق كـالـورس
وإن كنـت فى سعـدٍ فـذلـك فضلـهُ
وإن لم أكـنْ مـن سادة العـُرْبِ والفـُرْسِ
فقـلْ للـذى يـُزجـى الشراع دع الكـرى
تجد سُفـن الإحسـاَنِ تجرى على اليبـسِ
وسرْ مـوقنـاً أن الإجـابـة للهـوى
إذا مـا دعـا الـداعـى ولا تـكُ فى حـدْسِ
فكـلُّ الـذى تـرآه والكـون خلقـهُ
ومـا نفـع التفـريـقُ بـالنـوْع والجنـسِ
حسبـتُ الهوى سهـلاً فخُضـتُ عبُابَـه
فطـورًا بـه أطفـو ، وطـورًا بـه غَطْسـى
إلى أن أتتْنـى مـنْ لـدُنـهُ عنـايـةٌ
وصلـتُ بها بـرَّ السـلامـةِ والأنـسِ


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

# موسيـــقى من الله

*للشاعر محمود حسن إسماعيل*

« الـــدَّرْبُ ضـــوٌّ للسُّراة حقيقــــةٌ ، وحصـــادَ نـــُورْ
وهدى الدُّجى ، وتمزَّقت حجُـبُ الرياءِ ، على الحضُورْ »

« محمود حسن إسماعيل أحد الأصوات الشعرية الكبرى فى عصرنا الحديث ، ولد فى قـرية النخيلة بمحافظـة أسيوط فى الثانى مـن يوليو سنة ألـف وتسعمائة وتسع وكـانت وفاتـه ـ فى الكويـت ـ فى الـرابع والعشرين من أبـريل سنة ألف وتسعمائة وسبـع وسبعين ، عن رحلة شعـرية طـويلة وحـافلة ، أصـدر خـلالها عددًا كبيرًا مـن الدواويـن الشعرية تأكـدت بها منزلته كشاعرٍ أصيل له لغتـه الشعرية المتفردة وأسلوبه فى التصوير والتعبير ، وتجاربه الـوجدانية والكونية المميزة ، من بينها أغـانى الكوخ ـ هكذا أغنى ـــ أين المفر ـ نار وأصفـاد ـ قاب قوسـين ـ لابد ـ صلاة ورفض ـــ نهر الحقيقة ـ هدير البرزخ ـ صوت من الله » وهذه القصيـدة من ديوانه موسيقى مـن السر الذى صدر فى الذكرى الأولى لرحيله .



يقول الشاعر محمود حسن إسماعيل :

وهناك عند الفجْرِ فى إشراقةٍ كلظى الهجِيرْ
وعلى خُطى قمرّيَةَ الإيماضِ ،
يسْفحُ نُورُها كذب الصخور
روضٌ رحيبٌ ، أجهشت فيه الزهور
وتكلمت بعطوره لغةُ الطيور
وتأوّهت ريحٌ مجُنحةُ المسيرِ ، على مخاصرِه تدور
وترنّمت ورقاء صاليةُ الشّعور
معشوقتى وعشيقةُ النغمِ المُصفدِ فى الوُكُورْ
وذبيحتى ، وأنا الذبيحُ ، وَجازرُ الرؤيا أسيرْ
مُتلفّعٌ تحت العروقِ ، بمهدِه الثّملِ الوثيرْ
فى كفّه نهرُ الحياةِ ، لهيبُهُ قلقٌ مرير
وعلى شواطئه هتافٌ لجَّ فى ندمٍ غرير
وضراعة بلهاء تصرخُ وهى هالِعةُ النفيرْ
وخطيئة تلدُ الحياةَ ، ومهدُها يلدُ الدثُور
وصدًى يغرّدُ نائحًا ، وبدمعه يلْغو السُّرور
وغمامةٌ عرجاء دوَّخها المسيرْ
آناً تسيرُ وآنةً تبكى المصيرْ
والأفق مصلوب كسِيرْ
شحَنَتْهُ أوهامُ العصورْ
ومسابحُ النساكِ وهى على مزالقها تدور
الكفُّ مؤمنةٌ، وظلُّ الكفِّ مشنَقةُ الضميرْ

وتمائمُ المتبتلين كأنها حرجُ الغواية فى الصدور
مسكينة الأصداء تَّلْعقُ فى المداهنِ والبخورِ
وتَئنّ فى حباتها الدعواتُ ،
جائعة الهدى لزجاج كوبٍ أو حصيرِ
متلمّظاتٍ للورودِ ،
على هوادجَ أخجلتْ خشبَ النُّذورْ
يتلقَّفُ الأزوادَ ، من عبقٍ تنَاسمَ بالشرورْ
والنور ، من حَلَك تناغمً فى الجذور
والطُهْر ، من شطحاتِ أوهام وزور
وتعانقُ القُدْسَ المنيعَ ، كأنما سكن السّتور
بفهيق راغية محبّرة على زبد الثغور
ونقيق غاوية مبعثرة على خَبلِ جسير
متُخالج اللمحات .. أعمى دُسَّ فى ألَق ضرير
طحنته سُنبلهُ السيادِة بالقشورْ
والرزق ، والعوز المخدر بالسكينة والحبورْ
ولواه جلاّبُ المطايا للغرور
ومضفر الأصلاب أعتابا مطهمة الظهور
أقواسُها تئدُ السهامَ ، وتُنشبُ العشْبَ الحقير
وتحيلُ هشَّ الوارفين ، مشاتلاً لرُبى القصور
وعلى خضوع الهائمين بكفِّها تعلى الجسورْ
وتدورُ تطحنُ فى غيابتها ، فتطحنُ أو تدور !
سبحان وهّاب الظلام لمن يريدُ بصيص نور

سحبوا من الأكفانِ قُدرتَه ، ولجُّوا فى الثبور
وتأوَّدوا خببًا ، وتهتهةً ، وليّا للصدور
فى حومةٍ لا للسماء ، ولا التراب
لدفِّها نَسَبٌ يُشير
زعموا لقاء الله وحدهمو ، وجلَّ
فنوُرُه غمر الدهور
فى الحب ، فى الأمل المحلّق ، فى الأجنّة ، فى البذور
فى الريح ، فى النسيم المرنح ، فى العشايا والبكور
فى الطيف ، تلمحهُ ظلالُ ظلالِه فوق الغدير
فى السَّفح ، فى ضجر المغاور ، فى البرازخِ ، فى البحور
فى كُلِّ راقِىء دمعةٍ من جفن مظلومٍ فقير
فى كلِّ كاسرِ حلْقةٍ ، من قيد مهجورٍ أسيرْ
فى كُلِّ رافضَ لُقمةٍ ، للّيلِ ، جالبها أسيرْ
فى كُلِّ واهب روحهِ غوثَ التراب المستجيرْ
فى كُلِّ ذاتٍ حركتْ عدمَ الفراغَ إلى الصَّريرْ
فى خُطوةِ القَدمِ الذى هتك البراقعَ عن دجى
القمر المنيرْ
وحدَا السَّدَيم ، وشق بين يديه أسرار الأثيرْ
ومشى على الأجيالِ ، يسحقُ جهلَ عالمها الضَّرير
ويزيحُ ستر الغفلِ عن إعجاز خالقهِ القدير
الدَّرْبُ ضوّأَ للسُّراة
حقيقةً ، وحصادَ نُورْ

وهوى الدُّجى،
وتمزَّقت حجبُ الرياء على الحضورْ
فاللهُ يصحبُ كُلَّ من صحِبَ النهارَ ...
ومال عن غبشِ الستورْ

# على بــاب الـرجــاء

*شعر : طاهر أبو فاشا*

« فى طليعة الأصوات الشعرية المعاصرة ، ذاعت له شهرة من خلال كتابته الطويلة للبرنامج الإذاعى الشهير « ألف ليلة وليلة » والأوبريت الإذاعية « رابعة العدوية » التى سكب فيها عصارة شعره فى الحب الإلهى الذى ضمَّنه ديوانه « راهب الليل » .

وقد أصدر الشاعر ، قبل وفاته ، مصنفه « ألف يوم ويوم » بعد أن أصدر دراسته الأدبية « الذين أدركتهم حرفة الأدب » عن الشعراء والأدباء الذين شقوا بحظوظهم فى الحياة ، بالإضافة إلى ديوانيه الأخيرين : « الليالى » و « دموع لا تجف » .



يقول طاهر أبو فاشا :

غـريـبٌ على بـاب الـرجـاء طـريـحُ
ينـاديـك موصـول الجوى وينـوحُ
يهون عذابُ الجسـم والروح سـالم
فكيـف وروح المستهـامِ جـروحُ
وليس الـذى يشكو الصبابة عـاشقًا
ومـا كـلُّ بـاكٍ فى الغـرام قـريـحُ
يقـولون لى غنـىِّ [1] وبالقلب لـوعةٌ
أُغنـىّ بها فى خَلْـوَتى وأَنـوحُ
ولى فى طـريق الشـوقِ والليلُ هـائمٌ
معـالم تخفـى تـارةً وتلـوحُ
ولى فى مقـام الـوجـد حـالٌ ولـوعـةٌ
ودمـع أُدارِى فى الهوى ويبـوحُ
وأنت وجـودى فى شهودى وغيبتـى
وسرُّك نـور النـورِ أو هـو رُوحُ
ومـا دخلـتْ إلاَ إليـك مـواجـدى
وداعـى الهوى بـالـوالهين يصيـحُ
بسرِّ الهوى يغـدو وفيـه يـروحُ
غـريـبٌ على بـاب الـرجـاء طـريـحُ

* * *

---

( ١ ) الحديث على لسان رابعة العدوية فى الأوبريت الإذاعية التى تحمل إسمها .

حانةُ الأقدار عـربدت فيهـا لياليهـا ودار النور
والهوى صاحي
هذه الأزهـار كيف تسقيها وساقيهـا بها مخمور
كيف يا صاح

سـألتُ عـن الحبِّ أهـل الهوى
سُقـاة الـدمـوعِ نـدامَى الجوى
فقـالـوا حنـانـكِ مـن شجْـوهِ
ومـن جـدّه بـك أو لهوه
ومـن كـَدر الليـل أو صفـوهِ
سلِ الطيرَ إن شئـتِ عـن شـدْوهِ
ففـي شـدْوهِ همسـاتُ الهوى
وبـرْح الحنينِ وشَرْحُ الجوى

* * *

ورحـتُ إلى الطير ، اشكـو الجوى
وأسـألـهُ سِرَّ ذاكَ الجوى
فقـالَ حنـانـكَ مـن جمْره
ومـن صحْـوِ سـاقيـه أو سُكْرِهِ
ومـن نهيـهِ فيـك أو أمـْره
سلِ الليـل إن شئـتِ عـن سرِّه
ففـي الليـل يبعـثُ أهـلُ الهوى

* * *

ولما طــوانـــى الـــدُّجـــى والجوى
لقيـــتُ الهوى وعـــرفـــتُ الهوى
ففـــى حـــانـــة اللَّيـــلْ خمَّارُهُ
وتحت خيـــامِ الـــدُّجـــى نـــارهُ
وفى كـــلِّ شـــىءٍ يلـــوحُ الهوى
ولكـــنْ لمن ذاقَ طَعـــمَ الهوى

* * *

يا صُحبةَ الرَّاح : أهلُ الراح هل حانُوا
وهـــل تغنـــتْ على ألحانها الحانُ
صبـا النَّدامـى ومـا فى الحانِ ألحانُ
فى كأس عُمرى بقايا ، منْ يُشاربنى
ومـن يُطـارحنـى والعيـشُ ريْحانُ
ثُمالـةٌ مـن دمـوعِ الشجْـوِ ألـوانُ
إبـريقُهـا راح يبكى وهـو فـرحـانُ
ثُمالـــةٌ ، آهِ لـو فـــاضـــتْ ، وآه إذا
غاضـــتْ ، وواهًا لها ، والقلـبُ لهفانُ
عهـدى بها وكُؤوسُ الصَّفـوِ مُترعـةٌ
بهنَّ طـاف على السَّكـرى سُكَيْرانُ
لا يشربُ الـــراحَ ، إلا أنـــه ثمـــلُ
نشـوانٌ والكـأسُ فى كَفَّيْـهِ نشـوانُ
تـرى تعـود الليـالى والهوى معنـا

يا غُربــةَ الكأسِ ، ما للكأسِ نــُدْمانُ

* * *

عــرفتُ الهوى ، مــذْ عرفــتُ هواكــا
وأغلقـــتُ قلبـــىَ عمـــَّنْ ســـواكـــا
وقمــتُ أنـــاجيـك ، يــا مــَنْ تــرى
خفـــايـــا القلـــوب ولسْنـــا نـــراكـــا
( أُحبـــــك حُبَّيْن : حـــــُبَّ الهوى
وحُـبــًّا لأنـــك أهــــلٌ لـــذاكـــا )[1]
( فــــأمــَّا الـــذى هـــو حــُبُّ الهوى
فشغلى بـذكـرك عمــَّنْ ســواكـا )
( وأمــَّا الـــذى أنـــت أهــلٌ لـــه
فَكشفـُكَ لى الحُجْـبَ حتـــى أراكـا )
( فــــلا الحمـــــدُ فى ذا ولا ذاكَ لى
ولكـــن لـك الحمــدُ فى ذا وذاكـــا )
وأشتــاقُ شــوقيْن : شـــوقَ النـَّوى
وشـــوقًا لقــرْبِ الخُطـى من حماكـا
فــأمـــا الـــذى هـــو شـــوقُ النـَّوى
فَمسرى الـدمـــوع لطـولِ نـــَواكـا
وأمـــا اشتيـاقـــى بقــرب الحمـــى
فنــــارُ حيـــاةٍ خَبــتْ فى ضيـــاكـــا

---

[1] ( ١ ) الأبيات الأربعة التى بين الأقواس من شعر رابعة العدوية .

ولســتُ على الشَّجْوِ أشكــو الهوى
رضيــتُ بما شئْــتَ لى فى هـــواكــا

* * *

لغيرك مــا مــددْتُ يــدا — وغيرُكَ لا يفيضُ نــدى
وليس يضيقُ بابُك بى — فكيف تــردُّ منْ قصــدا
وركْنُك لم يــزَلْ صمدا — فكيف تــذودُ من ورَدا
ولُطْفُكَ يا خفىَّ اللّطْفِ — إن عادى الــزمانِ عــدَا

* * *

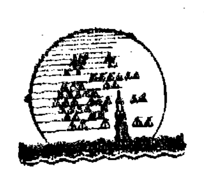
على قلبى وَضعــْتُ يدا — ونحْوكَ قد مــددْتُ يدا
سَرى ليلى بغير هـــُدًى — ولا أدرى لأىٍّ مـــــدى
يُطاردنــى الأسى أبــدا — ويرعــانى الجوى أبــدا
وينشرنى الهوى رُوحًا — ويطوينــى الهوى جسَدا
وأطوى البيــدَ طاويــةً — كأنّى فى الفضــاءِ صدى
نهارى والهجيرُ لظـــىً — وليلى والظـــــلامُ ردَى
فــواكبــدا إذا أضحــىً — وإنْ أُمســى فــواكبــدا
وليــس سـواكَ لى سَنــدٌ — فَقــدْتُ الأهْلَ والسَّنــدا

* * *

على عيْنــى بكتْ عينــى — على روحى جنَــتْ رُوحى
هــواكَ وبُعْدُ مــا بينــى — وبينـــك ،سرُّ تبريحى
صحا من شجوه كأسى — وقــد نــامَ الخليـّــونـا

فكيف أفـرُّ من نفســى إذا هـــام المحبـــونـــا
حيائى منــك يبُعدنــى وداعى الشوق يُدنينى
ووجهُ الصـفحِ يُخجلنى ويقتلنـــى ويُحييـنــى
خلـوت إليـك يــاربـى وقلــت عساك تقبلنــى

مددت يدى
إليك ومنك يا ربَّاه
ومن طول النَّوى أوّاه



# الفهـــرس

رقم الإيداع : ٢٣٩٨ / ١٩٩١

الترقيم الدولى : ٦ ـ ٠٥١ ـ ٠٩ ـ ٩٧٧





مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤

بيروت: ص ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣



# أحلى عشرين قصيدة في الحب الإلهي

إذا كانت الحلقة الأولى فى هذه السلسلة قد توقفت عند تجربة الحب فى الشعر العربى ، وحملت عنوان «أحلى عشرين قصيدة حب » فى هذا الشعر، فإن هذه الحلقة الثانية تتقدم إلى ساحة أسمى من ساحات هذا الحب هى ساحة الحب الإلهى ، حيث فاضت وجدانات العشاق الكبار من الشعراء بأنغام وترانيم وألحان تطهروا بها ، وحلقوا من خلالها ، دُنوًّا واستشرافًا من الأفق الأعلى والأسمى ، حيث ينابيع الروحانية، والفيض الغامر ، وحيث تمتلئ النفوس بأقباس من النورانية وتفيض العيون بدموع الندم والخشية والتوبة ، وتعمر القلوب بوشائج المحبة الدائمة ، ومقامات العشق وأحواله ، وينسكب هذا كله فى النهاية شعرًا يفيض بالصدق ويعمر باليقين والمحبة والإيمان .

والأمل معقود أن تلقى هذه المختارات من شعر الحب الإلهى ما لقيته سابقتها لدى القراء من ذيوع وانتشار ، وأن يستجيب شعراؤنا ودارسونا للدعوة التى حملتها المختارات السابقة : أن يسهموا ويشاركوا فى هذا الميدان ، كل على حسب طاقته واستطاعته واهتماماته، فتعدد مجالات الاختيار، من خلال أذواق عدة ، من شأنه أن يؤدى فى النهاية إلى تكوّن الذوق الصحيح المدرب الذى يجيد الانتقاء والرؤية النافذة ، وينجح فى تقديم قراءة عصرية جديدة لكل ما يحمله التراث من كنوز ، بعد أن ينفض عنها غبار الإهمال والنسيان ، ويعيد إليها ماء الجدّة والحياة .

فإذا ما نجحت هذه المختارات فى تقريب المسافة بين القارئ المعاصر وتراث أمته الشعرى ــ قديمه وحديثه ــ وفتحت بابًا ولو يسيرًا لتذوق عصرى ، ترفده حساسية جديدة ، ووعى جديد، فإنها تكون قد شارفت الغاية، وأشارت إلى الطريق .

© دارالشروق
القاهرة ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤
بيروت ص ب ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣